العالم الجديد

رواية اجتماعية غرامية فلسفية تاريخية

القسم الاول

مريم قبل التوبة

تأليف

فرح انطون

صاحب الجامعة

نيويورك — اول أكتوبر (تشرين اول) سنة ١٩٠٦

موضوع الرواية

وقعت حوادث هذه الرواية في مجدل وطبريا والناصرة وجنيساره واورشليم وغيرها .قبل ظهور المسيح بعشر سنوات وتمتد حوادثها الى مابعد ظهوره وصلبه . واهم اشخاصها (مريم المجدلية) المعروفة في الانجيل بمريم الخاطئة . وهي قسمان القسم الاول (مريم قبل التوبة) والقسم الثاني (مريم بعد التوبة) . وموضوع الرواية ذكر الاحتكاك الذي حدث بين مدنية الرومان واليونان في ذاك العهد بالمدنية اليهودية من جهة وبالمدنية المسيحية التي كانت آخذة في الظهور من جهة اخرى . وتصوير (العالم الجديد) الذي كان يطلبه كل منها وماذا بقي منه الى هذا العصر مما يصح ان يكون (العالم الجديد) الذي تنشده الانسانية الراقية ويتمناه الفلاسفة

وسيظهر في هذه الرواية السيد المسيح وتلامذته

في فصول عديدة

وبذلك يكون موضوع الرواية (العالم قبل صلب المسيح) كما ان روايتنا (اورشليم الجديدة) كانت (العالم بعد صلبه)

مقدمة الرواية

في التينة تحت النخلة

قالت الحمامة الوديعة «اني ارى
الفجر · وأَشمُّ في الهواء ريح العطر»

اجل هذا ما قالته يومئذٍ حمامة الخلاء لرفيقها في ليلة اشتدَّ بردها وسوادها وهي مختبئة بين الاغصان قرب عشها على شجرةٍ من شجر النخيل قائمة وسط غابة بين بحيرة طبريا وقرية مجدل · كانها رقيبٌ جعل في ذلك المكان الشاهق لرقابة الافق والانباء عما يحدث فيه

فرفع رفيقها الزوج رأْسه الذي كان مدفوناً بين جنحيه وانتفض لتنبيه دمه واعصابه لا لنفض الغبار والهوام عن ريشه ثم قال وهو يسرّح عينيه الذابلتين من النعاس في الافق امامه · انني لا ارى شيئاً ولا اشمُّ شيئاً ايتها الحبيبة

فاجابته : انك طول عمرك لا ترى شيئاً · وكانه كُتب لكم يا معشر الذكور ان تبقوا عمياناً وكُتب لنا معشر الاناث ان نكون السابقات الى اكتشاف كل امر ذي علاقة بجمال الروح ولطفها · ولقد كان مثلك في هذا مثل زوج احدى نسيباتي التي بعث بها سيدنا نوح عليه السلام من فلكه لتعود اليه ببشارة انقضاء الطوفان · فانها قبل ان عهد اليها نوح بهذه المهمة قالت لميرا زوجها وهما في الفلك انها حلمت بان سيدها وسيدنا نوحاً سيعهد اليها بمهمة تجعل اسمها خالداً على ممرّ الدهور · فضحك واجابها انها دخلتْ في طور الخرف · وانا اقول لك الآن يا فيرا : لا اعلم كنه الامر الذي أُحس الآن به · ولكنني ارى الفجر · واشم في الهواء ريح العطر

فاجاب شحرور كان بائتاً تحتهما في تينة : لقد صدقت سيرا يا فيرا فاني ارى ما رأَت واشمُّ ما شمت · يا جارنا الهدهد اسمعت مقالة الحمامة

فاجاب الهدهد اني شيخٌ ضعيف البصر ولكني قويّ حاسة الشم · حقاً اني اشم هذه الرائحة الغريبة · ثم انظر انني اكلت الآن من هذه التينة فلم اهنأ زماني بطعم طيّب مطيّب

كطعمها . فماذا جدّ في الارض وجوّها حتى صار لها هذه المزية . هل جاءت الساعة المنتظرة التي يُرفع فيها عنا نير الوحوش الحيوانية والبشرية (ويعيش الذئب والحمل) معاً

ولم ينقضِ نصف ساعة حتى انتشر الخبر بين جميع الطيور اللاجئة في الليل الى تلك الغابة . فاجتمعت الطيور المحلية والطيور الغريبة المارة بفلسطين في طريقها من هزار وكناري وببغاء وعندليب وبلبل وغراب وسماني وزرزور وحجل وغيرها وعقدت جلسة في التينة تحت النخلة . وكان هذا يقول ما هذا الطعم العطري الذي لهذه الثمرة . وذاك يقول انني زرت بلاد العرب والهند في هذا العام فلم اجد لمسكها وعودها ريحاً كهذا الريح . وغيره يقول ان الليل لا يزال دامساً والفجر بعيداً ومع ذلك نرى في الافق الشفق فياللعجب . وغيره يقول الا تشعرون بان اجسامنا خفت عن ذي قبل والهواء لطف ورق والنفس بانت منبسطة مرتاحة الى المعيشة في الارض

وكأن جلبة الطيور في التينة نبهت في الغابة وخارج الغابة جميع الحيوانات التي كانت هناك فاتجهت جميعها تقصد التينة لترى سبب هذا الصياح . فزحفت الافعى تسعي . وجاء الثعلب يتبختر ويقول : يا واهب يا فتاح افتحها في وجهنا . وجاءت الضبع من ورائه من بعيد لان علماء الحيوان يقولون انه لقصر نظرها وضعف شمها تتبع الثعالب من بعيد وتلازمها لتهتدي بهديها الى الجيف والفرائس لما هو مشهور من دقة نظر الثعلب وقوّة حاسة الشم عنده. ثم نُظر سرب من الغربان يحطّ في تلك الغابة . وفوقه باشق يحوم ليسمع ويرى لعله يقدر على صيد هناك . وفوق الباشق سلطان الجوّ وملك الطيور النسر الهائل وهو باسط جناحيه وجامد في مكانه في الهواء كشخص جالس على السحاب لا يتحرّك منه شيء غير عينيه ينظر بهما مزدرياً تلك الحيوانات الحقيرة التي تجلب وتلعب تحته

ولما علمت هذه الحيوانات الضارية بسبب هياج الطيور ضحكت الافعى وقهقه الثعلب حتى استلقى . وبينما هو يقهقه سمع صوتاً وحشياً من رمانة بعيدة من التينة . وكان هذا الصوت صوت البوم . فسمعه الثعلب يقول . لقد صدقتِ يا طيور النهار الجميلة . ودليلاً على صدقك اليكِ هذا الفأر الذي التقطته الآن من طرف الغابة :فانني آكله واجد له طعماً مسكياً . فقالت الافعى في نفسها ما احسن حظ البوم لقد وجد في هذه الجهات احد الفيران التي يسمونها ممسكة . وقد سال لعابها لذكر هذا الفار . اما الطيور فانقبضت لذكر الفأر واظهرت الكراهة والاشمئزاز . فقال لها البوم وقد القى الى الارض قطعة من الفأر الذي كان في فيه . تعالي وشميه . فرفعت الطيور اجنحتها ودفعت جسمها الى وراء كما تفعل حين

ابائها امرًا تكلف به وصرفت وجهها عن البوم

فلما رأى الثعلب فعل البوم مال نحوه وتبعته الافعى . فالتفت اليها الثعلب وقال ضاحكاً . يا عجوزتي تفضلي وابقي بعيدة عني . فضحكت الافعى وقالت لا تخف فنحن لا نفترس بعضنا بعضاً وما لي غرض في لحمك القذر . فاجاب الثعلب . قولي حامض لا قذر كما قال لي شاعر خبيث يوناني في شأن عنقود عنب لم استطع الوصول اليه . ولما صار الثعلب عند الشجرة التي كان عليها البوم التفت الثعلب اليه وقال : انت يا اخانا البارد . يا شيطان الليل الشنيع وروحه الخبيثة ما لك ولهذه الطيور . لقد فهمتُ مرادك يا شقي من القائك اليها قطعة الفأر . انك تعلم ان حكمها بشأن العطر والفجر مبنيٌ اكثره على التصوُّر والتخيل . فلم تجد ايها الروح المادية الخبيثة وسيلة لرفع هذا التصوُّر دفعة واحدة الا بصدمه بدليل ليس للتصوُّر سبيل اليه . فهي اذا جئتها بكل اعشاب الارض واثمارها تقول لك الآن انها كلها عطرية مسكية . ولكن لا يصل تصورها هذا الى حد وجدانها للفأر القذر رائحة طيبة . فانا اخوك الثعلب العاجز احمد طريقتك يا خبيث الليل في الجدل ولكني لا احمد غرضك . دع يا بارد هذه الطيور الوديعة اللطيفة في تصوُّراتها الجميلة . قل لها كما تقول وزيادة . ثبتها في اعتقادها بالفجر والعطر واللطف والسلم والحب والرفق فاننا لا نصطاد منها اكثر ما يمكننا اصطياده الا حين رقادها بامان واستسلام تحت اجنحة هذه الكلمات الظريفة اللطيفة . واذا كان اليوم هو فجر العصر الذي (يعيش فيه الذئب والحمل معاً) كما قالت فوافرحاه . اننا نحن معشر الحيوانات القوية المفترسة يمكننا حينئذٍ ان نختار بحسب قابليتنا من نريد افتراسه منها لانه يعيش معنا على مقربة منا . ولذلك يجب ايها الجاهل ان نصيح معها : حقاً اني ارى فجرًا . واشمُّ عطرًا

ولما أتى الثعلب على كلامه رفعت الافعى رأسها معجبة وقالت : لله درُّ الثعلب . نعم نعم : اني ارى الفجر واشم ريح العطر . يا بوم الشر لا تقطع رزقنا . دع الخرفان في معانيها الجميل . ثم التفتت نحو التينة حيث كانت الطيور تتباحث وتتذاكر في موضوعها وقالت : يا اخوتنا سكان الهواء يا ادلتنا في مملكة النور والسماء لله دركم ودر نظركم الثاقب ورأيكم الصائب . انظروا امامكم ألا ترون الفجر في الافق يزداد شروقاً والعطر عبوقاً

فالتفتت حينئذٍ الحمامة سيرا نحو زوجها فيرا وقالت له : أسمعت مقال الافعى . الا تخجل من ان الحيوانات الدنيئة التي تزحف بذل وصغار على تراب الارض القذر قد ادركت ما لم تدركه انت يا ابن النور والسماء ورأت ما لم ترَ

ولكن الحمامة لم تفه بهذا الكلام حتى علت صيحة الطيور تحتها في التينة وفرّت جميعها في كل الجهات فرارها من صوت بندقية تطلق عليها . وكان السبب ان النسر سلطان الهواء قد نزل من الجوّ نحو التينة اما طلباً للصيد في ذلك الصباح واما تلذذاً بمشهد فرار الطيور منه خوف بطشه . فلما رآه فيرا وسيرا هلع قلباهما واختبأا في راس النخلة بين طلعها وفيرا يقول لزوجته صباحك مبارك يا باردة اذا كانت مخالب النسر هي فجرك وعطرك .
اما النسر فلما بلغ التينة جثم على اعلى اغصانها وصار يسرّح نظره الحاد في ما حوله . ثم حانت منه التفاتة فابصر رمانة على مسافة مائتي قدم وعليها سرب من الغربان تنظر اليه من بعيد . فعبس النسر وحدّق فيها تحديقاً شديداً . فانبرى له مُقدم الغربان وقال

ـ لا تعبس فانك لا تخيفنا . اولاً لانك يا ملك الجو لا تأكل لحمنا . وثانياً لاننا هنا خمسون وانت واحد . وثالثاً لان (الفجر) قد اشرق كما قالت الحمامة وهبت على العالم روح جديدة ستقضي على قوة امتيازك . اي نعم يا ملك الطيور قد زالت مملكتك . اي نعم يا صاحب القوة والسيادة المبنية على مزاياك الخصوصية قد زالت قوتك وامتيازك . لقد جاءت مملكة الصغار والخاملين والضعفاء بحجة المساواة والاخاء . فاصبح اصغر واضعف واحد منا مساوياً لك ومعدوداً في منزلتك . اتراك يا ملك الطيور تشمّ هذا الريح الذي وجدته الحمامة في الهواء ؟ ان هذا الريح العطري اللطيف سيكون ديناميتاً يثلّ العروش ويثير الشعوب ويقلب الامم (عقباً على رأس لا رأساً على عقب) ويبني الكرة الارضية على مبادىء الصغار الجديدة

وما اتمّ مقدّم الغربان كلامه حتى علت جلبة من جهة الارض تحت الشجرة . فالتفتت الغربان فابصرت الثعلب يعدو مسرعاً والافعى تنساب الى وكر تختبىء فيه والضبع تعود القهقرى . وكان سبب فرارها رؤيتها الاسد ملك الوحوش قادماً من بعيد يتبختر تبختر الجبابرة الصناديد

ولما بلغ الأسد شجرة التين انفثأت كبرياء النسر ونسي حديث الغربان . وقد بقي الملكان (ملك الجوّ وملك الغاب) برهة ساكنين ينظر احدهما الى الآخر بلا سلام وكلام . لانهما لم يتعلما آداب الملوك من ملوك هذا الزمان .. وكانت الطيور في الاشجار البعيدة والوحوش في اطراف الغابة تتطاول وتشرئب اعناقها لترى ماذا يقع في جهة التينة

وكانت الساعة الرابعة بعد منتصف الليل بحساب هذا الزمان . وكان الجوّ صافياً كمرآة الغريبة كأنّ ملائكة السماء احسنت تنظيفه وتنقيته في ذلك الصباح . وكانت كواكب

السماء تنظر الى الارض بملايين العيون المنيرة المنتشرة في قبة الفلك كانها تتوقع في الارض امرًا خطيرًا . والنسيم يهب باردًا فيداعب اغصان الاشجار . والشفق يبدو في جهة المشرق كانه انعكاس مصابيح تنار . استعدادًا لركوب غزالة الصباح هودج النهار

وبينما كان سكان الغابة في تلك الحالة يتمتعون بسناء ذلك الصباح البهي واذا بالحمامة سيرا في اعلى النخلة قد ابرزت رأسها من مخباءها وقالت لزوجها بلسان متلجلج وقلب مختلج : انظر انظر

وكان بجانب الغابة طريق تؤدي الى بحيرة طبريا على ما تقدم . فمد فيرا زوج سيرا بصره من اعلى النخلة نحو الطريق حيث اشارت سيرا فرأى على الطريق شبح انسان قادم . وكان الرجل يسير ويخيل للناظر اليه ان الطريق تنار امامه في مسيره بمجرد مروره . فقال فيرا : من هذا القادم منفردًا في هذا الظلام وراسه منكوس الى الارض وقدماه تتنقلان ببطء كأنه في نزهة لا في سفر . فقالت سيرا : يا فيرا الا ترى هذا النور . الا ترى ان ريح العطر قد اشتد عن ذي قبل

ولما اقترب الرجل القادم من النخلة رأت سيرا انه شاب في نحو العشرين نحيل الجسم طويل القامة يمشي منحنيًا قليلاً الى امام ونظره في الارض كأنه يفكر في امر ويباحث نفسه . ويظهر ان جميع حيوانات الغابة قد انتبهت الى هذا القادم الغريب وصارت تنظر في جهته . وقال البوم في نفسه لقد وجد ملكانا الاسد والنسر طعام يومين فما اشقى حظ هذا المسافر . وكان الاسد قد افعى عند سماعه صوت قدمي الشبح من بعيد والنسر فوقه هيأ نفسه لمشاركته في فريسته : فلما مر الرجل القادم امام الغابة شخصت جميع الطيور والوحوش نحوه ثم نظرت الى الاسد لترى كيف تكون وثبته . وكانت الحمامة سيرا في اعلى النخلة ترتعد خوفًا على هذا القادم لانها علمت بطش الاسد من بطش النسر

وكانت تلك الدقيقة دقيقة يتوقف عليها مستقبل الارض والانسانية . وهي في تاريخ (حكمة الحيوانات) تعدل قرون الزمان كله . فيا فجرًا شهدت انتصار الحمامة لتكاسل الاسد وشبعه انك كنت فجر دنيا جديدة

فمر الشاب بالغابة حزينًا كئيبًا دون ان يلتفت اليها او يعلم بالخطر الذي كان على حياته . وقد تتبعته حيوانات الغابة بابصارها الى بعيد وهي ساكنة خاشعة لهول تلك الدقيقة التي انقضت بسلامة . وكان على الطريق من الجهة المقابلة لطريق الشبح المذكور مكاريان قادمان وامامها بغلان يحملان ضروف زيت . فلما مرا بالشبح المذكور قال احدهما للآخر :

هذا يشوع النجار من الناصرة . ما جاء به الى هنا في ظلمة هذا الليل

فيا حمامة النخلة بين مجدل وطبريا . يا سيرا الجميلة . انكِ كنتِ اول من بشّر العالم في الارض بالفجر والعطر . ولو علمتْ بكِ الكنيسة المسيحية يا مخلوقتي العزيزة لرفعتكِ الى مرتبة قديساتها كما رفعت مريم المجدلية التي بشرت بالقيامة وكانت سبباً في هذه العقيدة . اننا سنقص يا حمامتي قصة هذه المرأة في هذا الكتاب وهي ولئن كانت اجمل واحلى من قصتك الا انها ليست باطهر واصفى منها وان كان (الفجر والعطر) يطهران كل شيء . وسترين في ما يلي ان في البشر ثعالب وافاعي وغرباناً يقولون ما قاله ثعلبك وافعاك وغرابك على مقربة من التينة . واأسفاه يا سيرا الجميلة . لقد انقضى على العالم من تاريخ قصتكِ هذه حتى الآن نحو ١٩ قرناً والمبادىء التي بُسطت امامك على السنة هذه الحيوانات لا تزال في الارض مشتبكة متصادمة لعدم انتصار احدها بعد انتصاراً نهائياً. فهل نصيبنا نحن البشر في الارض نصيب رفاقك الحيوانات كالنمل مثلاً (١) ــ الذين مدنيتهم محدودة وفهمهم محدود فاذا بلغوا حدّهم وقفوا عنده او عادوا ادراجهم . ام سيخرج في المستقبل من احتكاك هذه المبادىء شيء ما لتوحيد الانسانية و بناء قصر سعادتها بمبادىء راسخة تكون شريعتها الحقيقية النهائية

---

(١) ربى المسيو برتلو العالم الكيماوي المشهور طائفة من النمل واختبر طبائعها فظهر له ان معيشتها الاجتماعية في مدن تبنيها ومؤن تذخرها ومعاملاتها بعضها لبعض غاية في الدقة والعلم والذكاء والفهم . ولكنها متى بلغت فيها حداً محدوداً قصرت ووقفت . فالسؤال هنا هو : ترى هل نصيب البشر كنصيب النمل

الفصل الاول

﴿ كنوز سليمان ﴾

واوهام العوام

كانت قرية « مجدل » او « مجدله » كما يقول كتاب الافرنج قرية صغيرة شبيهة بقرى لبنان في هذا الزمان (١) منازلها مربعة كمنازل فلاحيه. الاصاغر واكواخها كاكواخهم وطرقها ضيقة غير منتظمة ولا نظيفة كطرقهم . وكانت القرية منبسطة في ارض تعلوها اكمة لا يعلم التاريخ كيف كان تكونها. فلعلّ الرومان واليونان والفرس حفروا الارض في جوار القرية يطلبون فيها كنزاً كان قد شاع ان الملك سليمان دفنه هناك . او ان الطبيعة نفسها اخرجت من الارض اثقالها بفعل زلزال رفع بقعة وخفض بقعة كما رأينا ذلك رأي العيان في وادٍ الى غربي قرية فيع منذ نحو ١٩ سنة

وفي ذلك النهار الذي جلبت في صباحه الطيور والحيوانات جلبتها التي تقدم ذكرها في المقدمة وصل المكاريان اللذان مرّ ذكرهما هناك الى قرية مجدل . وكان طريقهما بجانب هذه الاكمة . فقال احدهما وهو يخز بغله بقضيب في يده . يا يوسف هل ترى هذه الكروم الجميلة والتين الخصب والقمح النامي في هذه الاكمة وما حولها . حقاً ان الله خصنا بنعمة عظمى حين وعد سيدنا موسى بارضٍ هذا خصبها . فاجاب يوسف . يابولس . نعم ان ارضنا خصيبة اما قرأت في كتبنا المقدسة قصة الجاسوسين اللذين أُرسلا الى هذه الارض قبل امتلاكنا اياها لتجسس احوالها واخبارها ثم عادا بعنقودي عنب لم يستطيعا حملها الاّ بمشقة وتعب . ولكن هذا الخصب الذي تراه امامك في هذه الاكمة لم ينشأ عن طبيعة الارض وحدها بل هنالك سرٌّ لا شك في انك سمعت به . فقال بولس كلاّ يا اخي في الايمان لم اسمع شيئاً . فقال يوسف : ان سيدنا سليمان حين ضاقت خزائنه بالكنوز التي

---

(١) رنان

اجتمعت عنده رأى من الحكمة ان يفرّقها ويخزنها لحين الحاجة . فاختار سرًّا عشرة اماكن في ارض الميعاد وخبأ في كل واحد منها احد كنوزه . ثم رغبة منه في ان لا يضل مخبأها هو وابناؤه بعده دعا للارض التي خبأ بها كل واحد من كنوزه بمزية تميزها عما حولها . فاستجاب الله دعوته وخص تلك الارض بخصب عظيم يختلف عن خصب الارض الاعتيادي . وقد جمع سليمان يومًا اولاده وقال لهم « يا ابنائي حيثما تجدون في مملكتنا بعد موتي ارضًا ممتازة بخصبها فاعلموا ان هناك كنزًا من كنوزي ينفعكم اذا انقسمت الامة عليكم او تمكن من وطنكم المحروس من الله اعداؤه الذين يحاربونكم » وهذه الاكمة التي تراها امامك هي احد كنوزه

فقال بولس وقد اشرق وجهه لله در سيدنا سليمان ما كان اوفر عقله واظهر فضله . ولكن اما خشي سيدنا سليمان ان يلتفت الناس من غير ابنائه التفاتًا خاصًا الى تلك الاراضي لما يرونه من الخصب الممتاز فيها . وماذا يمنعهم بعد شيوع هذا السر من ان يحفروا اليوم الارض لاستخراج تلك الكنوز

فضحك يوسف وقال وهل تظن ايها الساذج انك اعقل وافهم من سيدنا سليمان ملك العقل والفهم والحكمة . فانه لا شك قد فطن الى هذا الخطر ولذلك جعل في كل مخباء من مخابئ كنوزه حيوانًا هائلاً يرصد الكنز ولا يدع احدًا يدنو منه . اما نظرت ذلك الاسد الهائل الذي لقيناه اليوم عند الفجر في الغابة في طريقنا الى هنا رابضًا تحت التينة بغضب وكبرياء وفوقه نسر جاثم على احد اغصان التينة وهو ينظر في جهة الاسد . لا شك عندي ان هناك احد مخابئ سليمان . لان الارض ممتازة ايضًا بالخصب في ذلك المكان . وفي سفرة اخرى كنت مارًا في اول الليل بجهة جنيسارة وانا انشد وراء بغلي لاخفف مشقة السير والتعب عنه وعني فرأيت حيوانًا هائلاً برأسين وهو تنين مخيف جُعل للرصد هناك . فهل تظن احدًا يقدر على الدنو من هذه الكنوز وهذه الحيوانات الهائلة ترصدها

فوقف بولس هنا وقال ارحمنا يا رب . وهل رأيت الحيوان الهائل الذي يرصد هذه الاكمة في سفراتك الى مجدل

فضحك يوسف ضحكة ذات معنى مخصوص وقال نعم رأيته . ما لك وقفت تقدم ولا تخف فان الوقت نهار . وهذا الحيوان لا يسرح الا في الظلام . .

ثم ضحك هنا ضحكة اشد من الاولى

فقال بولس وقد تابع المسير بوجل . وما شكل هذا الحيوان الهائل اهو اسد ام تنين

ام غيرهما

فقال يوسف . هو افعى هائلة يا بولس . هي من الافاعي التي تبتلع البشر كما نبتلع انـا وانت حب هذا العنب

قال هذا ثم وثب عن سياج الطريق الى كرمة في بستان هناك فقطف منها عنقود عنب ثم عاد مسرعاً وهو يا كل منه

وكان بولس في اثناء ذلك يفكر بخوف ووجل في الافعى الهائلة . فلما عاد اليه رفيقه قال : انك بعد ذكرك هذه الافعى لو وهبتني بغلك على ان ادخل هذا البستان لقطف هذا العنقود لما فعلت . لانني اعلم ان الافاعي لا يلذ لها شيء كالاختباء والزحف بين الكروم. ولكن اخبرني ما شكل هذه الافعى التي تبتلع البشر . انني اتذكر ان احد رفاقنا في جنيساره قصّ علينا في احدى السهرات قصة افاعي هائلة توجد في بلاد بعيدة لم يتمكن احد من الوصول اليها حتى هؤلاء الخنازير الرومان الذين بلغوا اطراف الدنيا . وقد قال ان الواحدة منها اذا اصابت خروفاً او عجلاً فانها تبتلعه بسهولة(١) فما هي هيئة هذه الافعى

فقال يوسف ضاحكاً . رأسها كرأس امرأة . وجسمها كجسمها

فدهش بولس وقال . لا شك في انك مازح . يظهر انك لم ترها وتزعم انك رايتها

فقال يوسف . بل رايتها رايتها غير مرة . وان شئت ان تراها معي فهلمّ الى مكانها

فقال بولس . واين مكانها

فمدّ يوسف اصبعه نحو بيت في منتصف الاكمة بين سطحها وسفحها وقال : انظر هذا البيت الاسود القائم هناك فانها تقيم في هذا البيت

فقال بولس ضاحكاً . مالي اراك راغباً في المزاح في هذا الصباح. يظهر انك راضٍ عن اجرة الحمل الذي يحمله بغلك اليوم . انني ما عهدت الافاعي تسكن المنازل . ولا ارى هذا البيت اسود كما تقول فانه ذو لون احمر

فقال يوسف اسمع يابولس . انني سميت هذا البيت كما يسميه اهل هذه القرية . فهم يسمونه اسود مع كونه احمر . وهم واولادهم يخشون من الدنو منه ويفرون من قربه فرارهم من الشياطين لانهم يعتقدون ان الافعى التي تسكنه يسكن في جوفها سبعة شياطين . ولذلك ترى مكان هذا الكنز محروساً مصوناً كما لو كان جيش يحرسه . وان اولاد القرية يعبثون بجميع الحقول والكروم الا الكروم التي حول هذا البيت لاعتقادهم نجاستها .

(١) هي افعى في الهند معروفة باسم (بوا)

ولجهلهم اسباب هذا الخصب الممتاز هنا يعتقدون ان الارض لم تخصب هذا الخصب الا بفعل الشياطين الذين يسكنون بينها ٠ اما الافعى التي تسكن في هذا المنزل فافهم ايها اللبيب انني اردتُ بها افعى بشرية لا افعى حيوانية ٠ اما سمعت بصيت (مريم المجدلية) التي يسكن فيها سبعة شياطين

وكان المكاريان في اثناء هذا الكلام قد تجاوزا الاكمة ودخلا القرية يسوقان بغليهما ويتمان حديثهما ٠ ولم يكادا يتواريان عن النظر حتى انفتحت في البيت المذكور احدى نوافذه بقوة وشدة وظهر في النافذة وجه امرأة تنظر بامعان في جهة الطريق المؤدية من اورشليم الى مجدل

الفصل الثاني

في البيت الاسود

ألم مريم الخفي غير المها الظاهر

كان البيت الاسود مبنياً في منتصف الاكمة بين الكروم والزروع ٠ وكان مؤلفاً من ثلاث غرف صغيرة مربعة يُدخل من احداها الى الاخرى وكانت احدى الغرف مطبخاً والثانية مقعداً والثالثة غرفة نوم ٠ وكان في غرفة المقعد سرير من خشب وعليه فراش ٠ وكانت هذه الغرفة مزينة بسلامة ذوق الا ان الزينة الجميلة كانت لغرفة النوم. فقد كانت الازهار الطبيعية والصناعية منظومة باقات باقات ومصفوفة في زوايا هذه الغرفة ورفوفها وعلى مائدتين فيها فاذا فُتحت نافذتان كانتا في جدارين فيها ونُظرت منها الاشجار حول البيت تتدلى باغصانها نحو النافذتين وهي مثقلة بالزهر والثمر وشوهد النبت الطبيعي والزهر البري الذي كان يغطي الارض حوله خُيل للناظر ان داخل الغرفة المذكورة مختلط بالحديقة في خارجها وكأنه جزء منها وتتمة لها

وكان في سرير غرفة النوم في ذلك الصباح امرأة راقدة على جنبها الايمن ويدها اليمنى في اثناء رقادها تستر وجهها ٠ وكان لها في رقادها منظر يشبه منظر الاطفال لو لم يكن يمازجه شيء من لوائح الالم والاضطراب ٠ او ان شئت فقل ان منظرها كان كمنظر طفل

رقد وهو باكٍ متألم فانطبعت دلائل الألم في سحنته في الساعة الاولى من رقاده

ويظهر ان المرأة عقدت النية قبل رقادها في الليل ان تنتبه باكرًا ولذلك ما فتحت جفنيها وتمطت قليلاً حتى وثبت بغتة كانها نسيت امرًا وخافت فوات وقته . فاستوت في فراشها وصاحت باشد صوتها : حنة حنة

فدوى صوتها في فضاء الغرف الثلاث برخامة وبحةٍ لانه كان اول صوت خرج من حلقها بعد رقاد بطلت فيه حركته واستعماله . وكأنها قد اطالت السهر ليلة امس لان الضعف كان ظاهرًا في وجهها لذبول عينيها وارتخاء جسمها فضلاً عن بحة صوتها

ولما رأت المرأة انه لم يجاوبها احد على صراخها صرخت ثانية بصوت اشد : حنه حنه . قد انتصف النهار

فاجاب هذه المرة صوت خارج من غرفة المقعد . صحوت صحوت . ثم سُمع لصاحبة هذا الصوت تاوه وتافف لا يُعلم هل كان ناشئًا عن تحسر لامر فيه الم او عن تمطٍ لاعادة اعضاء جسمها بعد الرقاد الى حالتها الطبيعية من الخفة والمرونة

فقالت المرأة الاولى بصوت رفيع ايضًا . اني مريضة في هذا النهار انهضي وانظري من النافذة لعلك ترينه قادمًا

فنهضت حنه من فراشها في غرفة المقعد وهي تتثاءب وتترنم بنشيد هذه ترجمته

صحت الازهار والطيور * وهو لم يصحُ بعد
ليس ذا من دمه الثقيل * ولكن من السهر الطويل
يا حياتي يا قصيرة * امتلئي بلا فراغ
فحياتي في فنائي * وفنائي لي حياة

ولما بلغت حنه النافذة فتحتها واطلت منها ثم قالت . انني لا ارى على الطريق احدًا غير مكاريين وراء بغلين يتحادثان ويلتفتان الى هذا المكان

فقالت المرأة الاولى لله ما اثقل هذا الروماني . الم يعدكِ انه ياتي في هذا اليوم

ولكنها ما اتت على هذا الكلام حتى مُدَّت من احدى نوافذ البيت في الخارج عنق رجل وقال : ليس جميع الرومان ثقلاء . أتسمحان لي بالدخول لأُذهب عنكما ملل انتظار بوليوس

فضحكت حنه واما المرأة الاولى فضحكت ضحكة اغتصابية ثم قالت . هذا انت يا شيشرون . ادخل حقًا ليس جميع الرومان ثقلاء

فسارت حنه وفتحت الباب فدخل منه شاب في نحو الثلاثين من العمر. والذي لم يرَ هذا الشاب من قبل يعجب لشكله الغريب. فقد كان نحيف الجسم قصير القامة كانه من الاقزام وكان جسمه الصغير مشوهاً تشويهاً مضحكاً فقد كان محدوباً كانه يترامى نحو الارض قبل الاوان وبين كتفيه دملة كبرى طبيعية تظهر من وراء ثيابه اما راسه فكان ضخماً ووجهه اصفر لحياً ولا تناسب بينهما وبين جسمه الصغير الضئيل. وقد كان فمه اذا فتحه للكلام اشبه شيء بمغارة واسعة تحت انف ضخم مفلطح وشاربين ليس فيهما سوى بضع شعرات صغيرة. الاَّ ان عينيه الكبيرتين الحادتين فوقهما كانتا تدلاّن على ان الطبيعة التي خصته بذلك الجسم المشوه القبيح قد عوضته قوة في نفسه كانت تظهر في كل نظرة من نظراته. وكان في يده عصا من رمان يتوكأ عليها موازنة لجسمه المترامي نحو الارض

فلما دخل هذا الشاب قالت له المرأة الاولى بعد السلام كيف ترى نفسك يا شيشرون في بلادنا هل انستك رومه

فتاوه الشاب وكان يدعى شيشرون كما رايت وقال. جميع البلاد سواء لديّ فانني ابن الارض لا ابن رومه. ولم يلذ لي في حياتي شيء كجلوسي حيناً بعد حين تحت صفصافة قريبة من هذه الاكمة حيث اطالع مؤلفات سنيكا وايخيلوس وازوب

فهنا صاحت حنه بضجر لا تبدأ بالفلسفة يا صديقنا شيشرون. اذهب وادعُ دعوتك خارج هذا البيت. اما هنا فان شئت بسطنا وشرح خاطرنا فحادثنا عن زهرة جميلة قطفتها من البرية او امرأة ظريفة شاهدتها في طريقك وابتسمت لك. او نادرة عن بعض سيدات اورشليم الفاضلات .. اسمعت ايها الفيلسوف المضجر

فنظرت المرأة الاولى هنا الى حنه نظرة شامة ثم التفتت الى شيشرون وقالت. لا تعبأ بكلام هذه المرأة الخفيفة عقلاً وروحاً يا عزيزي شيشرون فانت تعلم من حديثي الطويل معك اول امس في ظل النخلة التي هناك انني ارتاح الى الاصغاء الى حديثك في اي امر كان. فاخبرني هل عزمت على الاقامة في بلادنا ام تنوي العودة الى رومه بلاد العظمة والعظماء

فقال شيشرون: انني افضل ان اكون اول انسان في هذه البلاد الصغيرة على ان اكون آخر انسان في تلك البلاد الكبيرة. ولست اعتب على اختك حنه لضجرها من كلامي ومواضيع حديثي ذلك لانني اعرف قلوب النساء. اي نعم اني اعرف قلوبهن ونفوسهن الخفيفة الطائشة التي لا يلذ لها شيء كالاشتغال بالعواطف والاوهام. ولذلك ترين على

الدوام مسافة الخلاف بين اذواقهن وذوقي . واميالهن واميالي شاسعة جداً . عفواً اذا ساءك كلامي ايتها السيدة مريم . انني استغرب حكمة الآلهة السخيفة التي خلقت في الارض كائناً كالمرأة خفيفاً طائشاً هاذراً هاذياً على الدوام . ولذلك لا احترم النساء الا المرأة التي تكون لها صفات جدية قوية كصفات الرجال . مثلك مثلاً ايتها السيدة مريم

وكانت مريم « وهي المرأة الاولى » قد اصبحت مبهوتة مفكرة في اثناء كلام شيشرون . اما حنه فكانت تنظر اليه وهي تضحك بازدراء كانها تقول له بضحكها هذا : لو رأيت في حياتك يا صاحب الجسم القبيح امرأة تحبك او تنظر اليك لتبدل رأيك في النساء من طرف الى طرف

وفي هذا الحين سُمع في الخارج على الطريق بجانب البيت صوت ركض جواد فهرعت مريم وحنه نحو النافذة وبعد نظرهما فيها صاحتا معاً . هذا يوليوس . ولما صار الفارس وفرسه على موازاة البيت في الطريق مرَّ كالسهم بين بضعة اولاد من القرية كانوا يلعبون هناك . فقال احدهم لآخر بعد مروره هذا خنزير روماني . ولما عطف الفارس وفرسه صاعداً نحو البيت الاسود بهت الاولاد وصاروا ينظرون بعضهم الى بعض . ثم قال احدهم : لو لم يكن هؤلاء الرومان شياطين لما كانوا يجسرون على الدنو من بيت يسكنه سبعة شياطين

وكان الفارس القادم شاباً في آخر دور الشباب لانه كان يناهز الثامنة والثلاثين . وكان طويل القامة منتصباً على ظهر جواده كانَّ جسمه الفُ الهجاء . وكان ذا لون ناصع البياض وشاربين اشقرين جميلين وعينين زرقاوين فيهما قوة وكبرياء تدل على انهما من سلالة جنس الفَ السيادة والعظمة ولم يجز عليه نير . واذا كان ذلك لا يكفي الناظر اليه للدلالة على انه كان رومانياً لا شك فيه فقد كان انفه النسري الدقيق يثبت له هذه الصفة . وكان التأثير الذي ينبعث من وجهه وجسمه اجمالاً مما يروق النظر وينشيء في النفس ارتياحاً الى منظر كهذا لمنظر جامع لقوة الرجولية وعزتها وخفة الشباب ورقته بين جنس بدأ يحني عنقه للذل

فربط الفارس فرسه في غصن كرمة بجانب البيت ثم دخل اليه . فاستقبلته مريم وحدها . اما حنه فكانت قد اختبأت بسرعة مع شيشرون في غرفة المقعد

فقالت له مريم ضاحكةً وهي تصلح شعرها بيدها . لقد ابطأت علينا ايها العزيز فهل شغلتك سيدات اورشليم عنا

فقال الشاب . انك ترين في وجهي ايتها العزيزة انني في اشتغال بال . فلا سيدات اورشليم ولا ممازحاتنا الاعتيادية تشرح صدري في هذه الايام . فقد دهتني مصيبة

منعتني من زيارتك منذ ١٥ يوماً وليس لي قوة على ان اذكرها لك الآن ..

فدهشت مريم وقالت بحزن . كل شرٍّ يصيبك ايها العزيز فانما يصيبني . لقد شغلت بالي وهجت بلبالي . ما هذه المصيبة يا بوليوس

فقال بوليوس . وردتني من رومه اخبار سيئة جداً . فان ابي خسر جميع امواله واعدائي هناك لا يكفون عن الوشاية بي لدى اولي الامر وربما تمكنوا من عزلي من المهمة السرية التي أُنفذتُ الى هذه البلاد من اجلها كما تعلمين . ولذلك اصبحت مضطراً للعودة الى رومه . وهذه آخر زيارة مني لك ايتها العزيزة

فهنا ازدادت دهشة مريم وعضت شفتيها من الغضب والغيظ . ولكنها تغلبت على نفسها وقالت . اتذهب وتتركني وحدي . لماذا لا تصطحبني

فضحك بوليوس ضحكة حزن وقال : ان في رومه كثيرات من السوريات واليهوديات الجميلات ايتها العزيزة لان الرومانيين يحبون هذين الجنسين . فلا مانع يمنعني من اصطحابك . ولكن تذكّري ان ابي قد خسر جميع امواله وانني ساصبح مضطراً الى الاستخدام لاتمكن من المعيشة اذ من الراجح لديّ انني سأعزل من وظيفتي . وقد جئت الآن اودعك واؤدي لك آخر واجب عليّ

قال هذا ثم مدّ يده الى جيبه فاخرج منه كيساً مملوءًا بالنقود فوضعه على مائدة هناك ثم قال ارجو ان تقبلي هذا الكيس تذكاراً مني . ثم اخذ يدها بين يديه وقال . كلما تنزّهتِ هناك على سطح الاكمة في الليالي المقمرة بين الكروم والنخيل والتين والرمان ارجو يا مريم ان تذكريني

وكانت مريم جامدة مبهوتة في اثناء هذا الكلام لا يتحرّك منها شيء حتى عيناها . ويظهر ان حديث بوليوس قد احدث ثورة في نفسها ولذلك ذهب منهما الفتور والذبول اللذان كانا فيهما منذ نحو نصف ساعة وحلت محلهما الكبرياء والحماسة . وقد نظر بوليوس دمعة تترقرق في تلك العينين الزرقاوين الجميلتين فاثر دمعها في نفسه . فلم يتمالك ان تنهد وقال :

لماذا تبكين ايتها العزيزة . انني ما زلت احبك كما كنتُ من قبل . واعدك انني اذا اصلحت اشغالي وتمكنت من العودة الى هذه البلاد فان اول عمل اشرع فيه هو كما وعدتك سابقاً ان نبني بيتاً لنا في جوار اورشليم لنعيش معاً بشرف وراحة وسلام . فامسحي دمعك ايتها العزيزة فانه يصدع قلبي ويؤلمني في سفري

فلما رأت مريم يوليوس يسترسل في تسكين بالمها والاعتذار اليها ابتسمت واجابت انك تظن انني ابكي يا يوليوس والحقيقة انني لا ابكي. ثم ضحكت ونادت باعلى صوتها : حنه حنه . وقالت له الا تريد توديع حنه قبل سفرك

فدخلت حنه وحيت يوليوس فاخبرتها مريم خبر سفره . وبعد برهة كان يوليوس على جواده عائدًا الى اورشليم من حيث أتى

وفي عودته من البيت الاسود مرَّ بين الصبية الذين كانوا يلعبون على الطريق في سفح الاكمة فافسح له الصبية الطريق بخوف ورهبة خشية ان يكون احد الشياطين السبعة قد علق به في ذلك البيت. وكانت مريم قد خرجت من غرفتها الى الكرم طلبًا للهواء النقي لانها شعرت بثقل الهواء في غرفتها وضيق صدرها بعد حديثها مع يوليوس وسفره. فتبعتها حنه وشيشرون ليشاهدا جواد يوليوس بعدو. وكأن مريم شعرت بخطاءها في خروجها في ذلك الحين من البيت لازدياد المها فنكصت راجعة الى غرفتها. ولكنها لم تخطُ خطوتين حتى انطرحت على الارض مغمى عليها وهي تصرخ صراخًا شديدًا واعضاؤها تتشنج تشنجًا مخيفًا

فهرعت اليها حنه مع شيشرون وهو يتوكأ على عصاه . ولم يفت هذا المشهد الصبية الذين كانوا يلعبون على الطريق . فلما شاهدوا مريم تنطرح على الارض وتصرخ متشنجة ذلك التشنج هلعت قلوبهم واصفرّت وجوههم واخذوا يعدون نحو القرية. ولما بلغوها اخذوا يقصون على اهلهم ما راوه بجانب البيت الاسود وهم يلهثون من التعب والذعر . فقال احدهم انه رأى ثلاثة شياطين ترقص فوق جثة المرأة وتضحك لصراخها. وقال آخر انه راى شيطانًا راسه في السحاب وقدماه على التراب بجانبها وهو يدوس بهما حينًا بعدحين على بطنها. وكان اليوم يوم سبت فاجتمع اهل القرية في معبدهم يقرأون الزبور والتوراة طلبًا لله ان يبعد عن قريتهم هذه المرأة وشياطينها

الفصل الثالث

سنيكا الاديب وسنيكا الفيلسوف

ولما انصرف المجدليون من معبدهم قصدوا الخلاء خارج القرية وهم ينظرون شزرًا الى البيت الاسود الذي كان قائمًا على الاكمة امامهم . وكان الرجال والنساء يسيرون متلفتين

بخوف واضطراب نحو البيت ويتطاولون لرؤية ما فيه من بعيد اما الاولاد فكانوا يركضون لاعبين امامهم غير مبالين بشيء لان حوادث الدهر مهما جلت وعظمت لا تقيم في اذهانهم الصغيرة الخالية الا مدة قصيرة . فلما صار الجميع خارج القرية يتنعمون بنور الشمس والهواء النقي مروا ببغلين يرعيان العشب وبجانبهما مكاريان يتناولان طعاماً على عباءة فرشاها امامهما على العشب. وكان المكاريان صاحبينا يوسف وبولس. فاستوقفا احد الاولاد وهما يا كلان وسألاه عن سبب الاجتماع . واذ علما به ضحك يوسف وارتعدت فرائص بولس . فقال ليوسف انك تغيظني بضحكك يا يوسف وانني اقسم بالزبور والتوراة ان هذه آخر سفرة لي الى هذه القرية الملعونة « المسكونة » (١) فازداد يوسف ضحكاً وقال ما قولك يا بولس اذا جاءك الآن احد يطلب منك اركابه بغلك الى هذا البيت اترد طلبه وتخسر الاجرة

فوثب بولس هنا عن الارض كما بدفع دافع وصاح بغضب. استعيذ بسيدنا داود وسيدنا سليمان من مزاحك البارد. وهل تظنني فقدت عقلي حتى القي بنفسي وببغلتي بين الشياطين. وماذا تفيدني الاجرة القليلة التي اقبضها لنقل رجل الى هذا البيت الملعون اذا علق بي او ببغلتي او بنا كلينا احد الشياطين السبعة الساكنين في الساكنة في هذا البيت . فان هذه الشياطين الملعونة تكره الاقامة في جوف امرأة قذرة فضلاً عن انها اعتادت التنقل ولا يمكنها الثبات في مقام. وكانك لا تعرف ايها المسكين ما ذا يصيب الشخص الذي يسكنه شيطان فانا اخبرك خبره فقد سمعته من رفيقي المكاري اندراوس في جنيساره. فان المسكون يشعر اولاً ان شيئاً كقضيب من حديد محمي أدخل في جوفه من عجزه الى قمة راسه فيغيب عن الوجود ويغمى عليه لان الشيطان يقبض روحه بيده ويطير بها في اعالي الجو لتعذيبها هناك ويترك الجسم على الارض. ولذلك يأخذ هذا الجسم في الاختباط والتشنج والاضطراب لشوقه الى روحه ورغبته في استردادها. ولما يصير الشيطان مع الروح في الجو يأخذ الشيطان في تعذيبها وهو ضاحك مشروح الصدر . فتارة يضغط عليها بقبضتيه فيخنقها ثم ينفخ فيها فيعيد الحياة اليها . فتعذب الروح بذلك عذابين عذاب الموت وعذاب الولادة ثانية اي العود الى الحياة. وطوراً يأخذها من فوق السحاب ويقذف بها الى الارض بقوته الجهنمية فتصير قطعاً قطعاً . فيهبط اليها بجناحيه الهائلين كانه تنين هائل هابط من السحاب فيجمع قطعها بذنبه الطويل المخيف ثم يمسها مساً باصبعه فتعود كما كانت. وآونة يربطها بطرف ذنبه

(١) اي المسكونة من الشياطين وهو تعبير كان عامياً في ذلك الزمن ولا يزال كذلك اليوم في فلسطين والشام

ثم يديرها به في الهواء كما يُدار المقلاع للرمي به وحين يبلغ دورانها اشدّه يرمي بها الى بعيد كما يرمى السهم فربما وقعت في اورشليم مثلاً اذا رميت من هنا . وبعد ذلك يكفي ان يمدّ اليها من اعالي الجوّ راس ذنبه ويحركه بعض الشيء ضاحكاً صافراً بفمه الهائل فترى تلك الروح المسكينة قد انجذبت اليه من تلقاء نفسها . واحياناً ينفخ عليها بنفسه الناري فيذيبها شيئاً فشيئاً كما يذوب الثلج بحرّ الشمس ثم يأخذ ذائبها ويبدّل نَفَسه الناري بنفَس ثلجي وينفخ عليها فتعود كما كانت . فهل انت مجنون يا يوسف لتعتقد انني القي بنفسي وبغلي المسكين في هذه التهلكة الهائلة

ولم يكد بولس يتم كلامه حتى سُمعت قهقهة من وراء فالتفت المكاريان فابصرا تحت شجرة على مسافة مائة متر منهما رجلين جالسين في ظل الشجرة وامامهما رجل ثالث واقف يحادثهما ويضحك . ثم نهض الرجلان وسارا يقصدان المكاريين يوسف وبولس . والرجل الثالث يتبعهما

وكان احد الرجلين شيخاً طاعناً في السن يقارب سنه الثمانين . والثاني شاباً يقارب سنه العشرين (١) وكانت ملامح وجهيهما متشابهة فالذي يراهما لا يشكّ في ان بينهما نسباً . فقد كانا طويلي القامة عظيمي الهامة شعرهما مسترسل على رقبتيهما ووجههما ضخم مستدير تلوح عليه لوائح الهيبة والسكون كانهما ممن اعتادوا التامل والروية . ولاكبرهما سناً لحية بيضاء تطوّق وجهه . ولكليهما جبين متسع تحتهما عينان قويتان هادئتان تدلاّن على نفس جمعت بين نقيضين : قوة الحركة والسكون (٢)

ولما بلغ الرجلان الى المكاريين انبرى الشاب وقال باللغة اللاتينية. اتؤجراننا بغليكما الى مسافة قريبة . ولما لم يفهم المكاريان كلامه انبرى الرجل الثالث الذي كان يتبعهما وقال لهما ذلك القول باللغة العبرانية السريانية لغة اهل فلسطين في تلك الايام. وكان هذا الرجل ترجماناً اسرائيلياً قدم مع الرجلين في سياحتهما

فنهض المكاريان مسرورين لاعداد بغليهما . ولكن بولس سال الترجمان الى اين

---

(١) ولد سنيكا الاب في سنة ٦١ قبل الميلاد وتوفي في سنه ٣٠ بعده. وهو تقريباً الزمن الذي شرع فيه يسوع يعلم . وولد سنيكا الابن في سنة ٢ بعد الميلاد وتوفي في سنة ٦٦ بعده وابتدأت حوادث هذه الرواية حين كان سن يسوع ٢٠ سنة

(٢) صفات سنيكا الاديب « الاب » وسنيكا الفيلسوف « الابن » هنا ماخوذة من تمثال برونزي لسنيكا في متحف نابولي ورسم للرسام المشهور روبان

يقصد سيداك الخنزيران . فعبس الترجمان وقال "اسكت ياملعون لانني اخاف ان يفهما كلامك . ثم اجابه انهما يقصدان الاكمة القريبة التي عليها ذلك البيت الاحمر "

فلما سمع المكاريان هذا الكلام عبس بولس وانتفض من الغضب وضحك يوسف حتى قهقه . وقد ابى بولس اباء شديداً اركاب بغله الى تلك الاكمة . وبعد جدال شديد بينه وبين رفيقه يوسف اتفقا على ان يركباها الى سفح الاكمة وهناك يقبضان اجرتهما و ينصرفان . ولما علم الشيخ والشاب بهذا الشرط ضحكا لانهما كانا قد سمعا وهما تحت الشجرة حديث المكاريين . وقال الشيخ للشاب : لولا سني وضعفي لما كلفت هذا المسكين عناء نقلي الى مكان يحاذر الدنو منه . فانني اشفق ان تطير نفسه الساذجة شعاعاً لوهم يتوهمه هناك . فاجاب الشاب . علينا يا ابتاه نحن معاشر الرومان اسياد هذه البلاد ان نكون اوصياء على اهلها . فاوهامهم وخرافاتهم التي لا تزول باللين واللطف يجب علينا ازالتها بالقوة والعنف

فركب الشيخ والشاب وسار المكاريان والترجمان وراء البغلين . وبعد برهة قال الشيخ . ان ما قلته الآن يا لوسيوس مخالف لمبدائنا في سياسة الامم على خط مستقيم . فنحن لا نطلب امرًا من الامم التي نملك بلادها غير الطاعة والجزية وتركها موالاة اعدائنا . اما اوهامها وخرافاتها واديانها ومبادئها فلا نتعرض لها (١) وفعلنا هذا حسن يا بني لعدة اسباب منها اننا اذا اردنا استئصال الاوهام والخرافات وجب علينا ان نبدأ بالتي عندنا في بلادنا بين قومنا

وكان بولس يسير وراء بغله خائفاً ونظره يتجه حيناً بعد حين نحو البيت الاحمر على الاكمة . اما يوسف فكان يسأل الترجمان عن الرجلين . فاخبره الترجمان ان الوالي الروماني في اورشليم لما علم بقدومهما الى هذه البلاد خف لاستقبالهما اعظم استقبال لانهما من عظماء رومه . وقد سار بنفسه يريهما آثار المدينة وشوارعها . وفي ذات يوم اخبراه عن رغبتهما في السياحة في داخل البلاد فحذرهما من هذا الامر بحجة ان المتحمسين منا كثيرون فيخشى ان يصيبوهما باذى خاصة في هذا الوقت الذي اشتد فيه الاضطراب وطمحت انظار شعبنا الى رجل يقوم لطرد الرومانيين من بلادنا واعادة سيادتنا على العالم . ولكن لما رأى اصرارهما على مشاهدة البلاد والعباد في هذه الارض التي يزورانها مبتسمين مزدريين بها دعاني اليه لما يعرفه من قدرتي على حمايتهما لدى قومنا وعهد الي السفر معهما . ثم قال لي « لم ارسل معكم جنداً لحراستكم لاننا لا نتخذ جنداً من هذه الامة . والجنود الرومانية اذا

(١) رنان « تاريخ المسيح وتاريخ بني اسرائيل » مونتسكيو « اسباب عظمة الرومان »

ظهرت ملابسها واسلحتها في داخل البلاد كان ظهورها سبباً في الهياج عليكم بدل حمايتكم »

ففتل هنا بولس شاربيه ورفع راسه وقال معتزّاً أرأيتم كيف يخاف هؤلاء الخنازير منا . آه لو كان سيدنا داود او سيدنا سليمان عائشاً في هذا الزمن فانه كان اغرقهم جميعاً في بحر طبريا وفتح بلادهم حتى رومه

فضحك يوسف وقال اذا كان جنده شجعاناً مثلك يخافون حتى من الدنو من هذه الاكمة فانه لا يقدر ان يفتح حتى باب قصره

فسخط بولس وقال أ بلغتْ بك القحة وحب المزاح ان تهزأ حتى بسيدنا داود حقاً يا يوسف انك اصبحتَ ثقيلاً

فقال يوسف بجدٍ كلا لا امزح ايها الابله وانما اقول الحق . أتظن شعبنا مع ما طرأ عليه من الذل والضعف والتشتيت مراراً واهمال الرؤساء تربيته الاجتماعية العسكرية الاولى وفقده الحماسة والجامعة القديمة — اتظنه الان مع ما تقدم قادراً على الثبات امام جبابرة الرومان وجندهم الكثيف وقوادهم الابطال

فتحمّس بولس وقال . انك مخطئ في قولك اننا فقدنا حماستنا . أما سمعت بمتياس الذي قتل في ذلك اليوم رجلاً في طبريا كان يعترض على شريعتنا . فاية حماسة اشد من بذل انسان نفسه في سبيل الدفاع عن شريعته (١) واية جامعة افضل من هذه الجامعة . ثم ايها المسكين أتنسى « جشوان . مشيا » (٢) الذي ننتظره لانقاذنا واعادة مملكتنا . فهل تزعم ايضاً انه اذا جاء الان ملكنا جشوان يعجز عن قهر خنازير الرومان وطردها عنا

فهمّ يوسف بالجواب ولكن الشاب لوسيوس نادى في هذا الحين الترجمان والمكاريين فدنوا منه فقال الشيخ للترجمان ان لوسيوس راى خوف هذا المكاري « واشار الى بولس » من الدنو من الاكمة والبيت الاحمر الذي عليها لاعتقاده ان الشياطين تسكنه وتسكن المراة المسكينة المقيمة فيه . وبناء على ذلك يرغب في ان تكون ترجماناً بينه وبين هذا المكاري ليحدثه حديثاً ينفعه . فترجم بينهما

فقال الشاب لوسيوس ما اسم هذا المكاري فاجاب الترجمان اسمه بولس . فقال لوسيوس . بولس بولس . انني اجد هذا الاسم جميلاً . وقد حلمتْ امي يوماً بان الناس

---

(١) كانوا يسمون هؤلاء القتلة « غنايم » او « القتلة الدينيين »

(٢) معنى جشوان بالعبرانية « جيوفاه المخلص » وجيوفاه الله . ومشيا المسيح . وكلا الاسمين يُطلق على المنتظَر عند اليهود وكانوا كثيري اللهج به في تلك الايام

سيكذبون عليّ في آخر حياتي ويصنفون عن لساني رسائل الى شخص يدعى بولس (١) وقد خافت ان يكون ذلك لدسيسة سياسية . فسل بولس عن لساني من اين علم ان المرأة التي رآها صبية القرية تخبط وتتشنج على الارض امام بيتها يسكنها سبعة شياطين . فاجاب بولس علمت ذلك من رفيقي يوسف ومن احد اولاد القرية . فقال لوسيوس انك علمت منهما انها تخبط وتتشنج في حال غيبوبتها . وهي مشاهدة حقيقية . ولكن الا يمكن ان يكون لذلك علة غير الشياطين . ففتح بولس فاه كمستغرب وقال وما عسى ان يكون سبب ذلك غير الشياطين . وكيف تذهب روحها منها وتغيب عن الوجود اذا لم يخطف الشيطان روحها ساعة او نصف ساعة . فاجاب بوليوس انني الآن اذا نزلتُ عن بغلي والتقتُ هذا الحجر الذي هناك وضربتك به على رأسك ضربة شديدة فانك يغمى عليك وتغيب عن الوجود فهل ذلك دليل على انه دخلك شيطان ام يكون سبب غيبوبتك ضربك بالحجر على رأسك . فسكت بولس ولم يجب . فقال لوسيوس وهل تظن ان الشياطين موجودة في هذه البلاد دون غيرها ام توجد في غيرها . فاجاب بولس لا اعلم . فقال لوسيوس انني اعرف رجلاً يونانياً (٢) رأى في بلاده كثيرين من الرجال والنساء الذين يصرعون ويقولون عنهم ان الشياطين تسكنهم . وقد كتب في هذا الموضوع كتاباً تقدَّم به آراء العلماء في المستقبل وسأترجم لك شيئاً منه اذا اردت عند عودتنا من الاكمة لانه بين امتعتي في مجدل . وهو يقول ان ذلك الصرع « او الشياطين كما تقولون » علة تصيب الجسم وداء ناشئ عن هياج الدم والاعصاب . وهو يسميه « العلة المقدَّسة » لانه كثيراً ما يصيب المجانين ولبعض الناس رأي في تقديس المجانين . فهذه المرأة المسكينة التي اخذتنا الشفقة عليها بعد ما سمعناه من حديثك مع رفيقك وما استفاده ترجماننا من اولاد القرية وما بلغنا عنها في غير هذا المكان ـ انما هي مصابة بداء بشري ومرض اصبح اليوم سببه معروفاً . ولا دخل للشياطين فيه

فبهت هنا بولس وصار ينظر الى يوسف ويوسف ينظر اليه مدهوشاً ايضاً . فاستأنف

---

(١) اشارة الى ثلاث عشرة رسالة يزعم بعضهم ان سنيكا فيلسوف الرومان العظيم « وهو هنا الابن » كتبها من رومه الى الرسول بولس ولكن المحققين يرجحون انها رسائل مختلقة . على ان اختلاقها قديم جداً لان القديسين اوغوسطينوس وجيروم يشيران اليها في كتاباتهما

(٢) هو ابوقراط المشهور ولد سنة ٤٦٠ قبل الميلاد

لوسيوس كلامه قائلاً . وستراناً الآن بعد وصولنا الى البيت نمسك يد تلك المرأة المسكينة ونرش وجهها وصدرها بالماء ونقيم في البيت ما اردنا دون ان نخاف شراً ولا ضراً . فهل فهمت الآن سبب علة هذه المرأة

فهزَّ بولس راسه وقال . كان شرطنا ان نُركبكم الى سفح القرية . فادخلوا انتم البيت وجسوا يد صاحبته وآخوا شياطينها اذا شئتم . اما انا وبغلي فلا نخطو نحو البيت خطوة واحدة

فقال الشيخ الاب : هل رأيت يا لوسيوس مبلغ تاثير درسك في نفسه . فانك شرحت له سبب هذه العلة شرحاً جلياً فلم يصدقك ولا بالى بكلامك وربما استصغر عقلك واستقلَّ فهمك . فيابني دع البشر السذج في اوهامهم واحلامهم التي ورثوها مع دمائهم ورضعوها مع الحليب منذ نعومة اظفارهم . وليكن استعمالك العلم والحقيقة كما يستعمل الزارع البزور التي يبزرها في حقله . فانها قد تقع في ارض جيدة فتنمو وتجود . وقد تقع في ارض شائكة جافة رديئة فتموت . ولا يخطر حينئذٍ في بال الزارع ان يُرغم هذه التربة الرديئة بان تقبل بزرته وتنميها لعلمه ان ذلك فوق طاقتها . الا اذا اصلحها واعدَّ تربتها لذلك الانماء من جديد . وليس البشر كالتربة فانه متى انعقدت الواحهم وخشنت عظامهم لم يبقَ سبيل لتغيير نفوسهم

الفصل الرابع

❊ الفيلسوفان بجانب فراش مريم ❊

ولما انتهى البغلان الى الاكمة ترجَّل الشيخ والشاب حسب الاتفاق واشارا الى المكاريين ان ينتظراها في السفح . ثم صعدا الاكمة نحو البيت يتبعهما الترجمان

ويظهر ان مَن في البيت ابصروا من النافذة الرجال الثلاثة قادمين نحوهم فهرعت حنه الى النافذة ثم قالت لشيشرون بعد ان انعمت النظر في القادمين — لا اعرف هؤلاء الرجال

فدنا شيشرون من النافذة وراى منها دون ان يُرى فيها ثم قال مستغرباً . اظنهم من قومي الرومان على ما ارى في ملابسهم

وكان الشيخ اديب رومه وصاحب البيان فيها يصعد الاكمة الهوينا. وهو يلهث تعباً من ثمانين سنة كانت تُثقل كاهله

ان الثمانين وقد بُلغتها قد احوجت سمعي الى ترجمان

وكان يسير وهو يقول لابنه فيلسوف رومه الاعظم في الغد . استاذ نيرون. وعظيم حكماء الرومان

انظر يا بني هذا البيت الحقير الذي امامنا. انه بضم داءين داء الصرع وداء الفساد . واظن ان التبعة فيهما واقعة على رومه التي تريد ان تكون سيدة العالم . أجلَ يا بني ان هذا الشعب الساذج الصغير كان يعيش في بلاده الساذجة الصغيرة بسكينة وخمول. وكانت حالته ومعيشته منطبقة على اخلاقه وصفاته فكان هادئاً ساكناً راضياً . ولكن ارادة رومه اقتضت احتلال بلاده وادخال مدنيتها وزخارفها وفنونها اليه . فجاء الرومان من كل صوب يعرضون فيه ازياءهم وزيناتهم ويتمتعون على مرأى منه بثرواتهم وخيراتهم وملاذهم المحللة والمحرمة . فماذا يفعل هذا الشعب بازاء هذه المظاهر . انه ولا شك يلتمس الاقتداء بها والنسج على منوالها . ولذلك تنحلّ في نفسه مبادئه وآراؤه القديمة في الحياة تعلقاً بمبادىء وآراء جديدة لا توافق مزاجه . فينشأ في نفسه عن رغبته في الحياة الرومانية وعجزه عن البلوغ اليها اضطراب داخلي يجعل اعصابه متهيجة على الدوام . فيكثر فيه عدد المتهيجين والمجانين والمصروعين مرضى وغير مرضى . ولكنّ هذا الهياج والانفعال انما هو مرض واي مرض . اذ به تُتبدل اخلاق الشخص وتسوء فيتدرج من هوة الى هوة وربما بلغ اعمق الهاويات ولم ينتبه الى نفسه ولا راى حالته امرًا ادًا . ولعل هذا اصح تعليل لحالة هذه المراة المسكينة ودائيها اللذين اشرتُ اليهما . فعلى رؤوسنا نحن الرومانيين نقع تبعة هذه المفاسد الاجتماعية ومنا يجب ان تكون اول تعزية واول كلمة حلوة توجّه الى امثال هذه المرأة الساقطة المنبوذة من الارض والسماء (١)

---

(١) على هذا النسق كان كلام سنيكا الاديب لانه كان مشهورًا بالتمحل والكلفة في خطبه وكتاباته . ولا غرابة في تحليله هذا التحليل هنا لانه اشتهر في كتابه « المجادلات » بوصف اخلاق عصره وصفاً لم يجاره فيه احد ولا يوجد في غير كتاباته

ولما دخل سنيكا الأب وسنيكا الابن الى بيت مريم كانت مريم مستلقية في فراشها دون وعي وبجانبها حنه . وكان الترجمان اليهودي يتبع الشيخ والشاب مستغرباً جرأتها على الدخول الى هذا البيت دون ان يخافا كلام الناس . ولكنه قال في نفسه انهما غريبان والغريب لا يبالي بكلام الناس لجهلهم بحقيقة امره فضلاً عن ان ما رآه في اخلاق الشيخ وتأدبه ابعد كل ظن سيء فيه . واذا تكللت قمة الانسان العاقل باكليل الشيب وصفت نفسه من كدورات المادة واصبح على شفا القبر فهو يضع يده في اقذر يد لامرأة فتطهرها بمجرد مسها لها ولا تتنجس يده منها

اما الشيخ فمذ اشرف على سرير مريم اختلس النظر الى ابنه ليرى تأثير منظر تلك المرأة الجميلة في نفس الشاب . فرأى لوسيوس ينظر الى تلك المرأة الغضة التي كانت كانها على فراشها برج فضة بعينين متقدتين باحثتين . ولكن الاب كان يعلم ان الشاب الذي عاشر سيدات رومه الظريفات الجميلات وشهد بهاء كبيرات الرومانيات وبذخهن ودلالهن لا تروقه بعد ذلك قروية من امة ضعيفة منحطة مهما كانت جميلة . اذ لاتفاق الاذواق والتربية والاخلاق ابلغ تأثير في اتفاق القلوب . ولكن عند القلوب الحامية هذا النظر نظر شيخ شبع من الايام لا نظر شاب يتطلع الى جميع ضروب الجمال وافانين الرقة المختلفة التأثير والاجتذاب في الجنس الانثوي

وكانت مريم راقدة في سريرها بعد النوبة التي اصابتها ووجهها الناصع البياض منتفخ تحت شعرها الاشقر الجميل كانه ملطخ بالدماء من تأثير النوبة . وكانت احدى يديها الناعمتين البيضاوين على صدرها تقبض بها على ثوبها الابيض الناصع بتشنج شديد ويدها الاخرى تقبض بها على خشب سريرها . وكانت اجفانها مطبقة الا انها كانت ترتجف . وصدرها العريض البارز يخفق خفقاناً منتظماً . اما سائر جسمها فقد كان يابساً كانه قطعة واحدة

فلما وقع عليها نظر الشيخ علم من حالتها هذه ان نوبتها لم تفارقها بعد . فاسرع اليها واخذ بيده الجليلة يدها البيضاء الناعمة ليجس نبضها

في هذا الحين فتحت مريم عينيها . وكانتا زرقاوين نجلاوين (١) وفي اشفارهما وطف (٢) كانما هي نبال مغروسة في اجفانها . وكانت هذه الاجفان مكحولة كحلاً طبيعياً فكان لزرقة

---

(١) واسعتين (٢) عن الثعالبي « الوطف طول الاشفار وتمامها » وفي الحديث انه « صلعم » كان في اشفاره وطف

عينيها تحت سواداجفانها منظر رائع يعاكس بعضه بعضاً ولكن يكمل بعضه بعضاً. ذلك لان الزرقة في عينيها كانت تجعل لها نظرًا لطيفاً ضعيفاً ولكن السواد في اجفانها كان يمدّها بقوّة وحماسة غريبة . فالناظر اليها لا يتمالك من الدهشة لاجتماع هذين النقيضين فيها

ولما فتحت مريم عينيها نظرت بهما على غير هدىً الى ما حولها وهما ثائرتـان منتفختان محمرّتان. واذ وقع نظرها على اشخاص غرباء في غرفتها وثبت كما بدفع دافع وابتوت جالسة في فراشها وقد جذبت يدها من يد الشيخ بقوة . ثم ضحكت ضحكة شديدة . ضحكة ألم واشمئزاز واحتقار وصاحت باعلى صوتها ــ وانت ايضاً ايها الشيخ القذر ؟

فلم يفهم الشيخ كلامها ولكن الترجمان اسرع فتقدّم وهمّ بالكلام ليشرح لمريم سبب زيارة هذين الرجلين لها . فاتمّت مريم كلامها بغضب شديد دون ان تسمع كلام الترجمان. وكانت حنه في اثناء ذلك تحاول تسكينها وإنامتها

ــ وانت ايضاً ايها الشيخ القذر ؟.. قبحاً لك ولشيبك ... روماني ايضاً ؟.. قه قه قه .. شكرًا لك ... قد كفاني ما رأيته منكم ايها الرومان اللئام .. انني انا المرأة الساقطة الدنيئة لا افعل ما تفعلونه ... انتم كبار عظام ولكن في نكث العهود واخلاف الوعود ... قه قه قه. جئتم تمدنوننا وتعلموننا النظام . فهلاّ بدأتم بنفسكم ...

ثم استجمعت قواها ورفعت ذراعيها في الهواء واغمضت جفنيها كانها تسبح في عالم غير هذا العالم وقالت متهقهة و يداها ممدودتان نحو الشيخ

ــ تعالَ .. تعالَ اليّ يا حبيبي الشيخ القذر .. تعالــَ وامرغ جبهتك التسعينية في صدر اطهر من لحيتك ..

وكأنّ قواها نفدت بعد هذا الكلام فاستلقت دون هدىً على فراشها وعاودتها نوبتها في اشدّ حالاتها

ولم يترجم الترجمان شيئاً من هذا الكلام لسنيكا وابنه ولذلك لم يفهما شيئاً منه. فسأله الشيخ ماذا تقول المرأة. فهمّ الترجمان ان يصنف له كلاماً من عنده واذا بقزم تقدّم الجميع نحو فراش مريم وقال باللغة اللاتينية بشيء من النزق

ــ اظن انكم تحسنون صنعاً اذا تركتم هذه المرأة المسكينة وشأنها ايها الاخوان

فلما سمع الشيخ والشاب الكلام بلغتهما من ذلك القزم التفتا اليه بكبرياء رومانية . وقال له لوسيوس ابن الشيخ

ــ وما شأنك انت هنا

فاجاب القزم بغضب

ــ شأني هنا ارفع من شأنك . نحن من وطن واحد وجنس واحد وانني لأخجل من ان يقال ان الرومانيين يأتون ما تأتونه الآن في هذا المكان بجانب فراش امرأة ساقطة مسكينة من التلذذ بمرأى عذابها وشقائها . انني فررتُ من رومه لكي لا ارى امثال هذه القسوة والاعمال تصدر عن «الرومانيين ممدني العالم» فانا الآن باسم المدنية الرومانية التي تدعونها و باسم الوطن الروماني والاسم الروماني ادعوكم الى الخروج من هنا

وكان الشيخ عابساً في اثناء هذا الكلام . اما ابنه فابتسم واجاب

ــ لا شك عندك في اننا ندنس الاسم الروماني في وجودنا في هذا المكان . ولكن انت ايها الروماني الشريف لماذا جئت الى هنا . لعلك جئت تصلي . . .

فاجاب القزم ولا ريب ان القارىء قد ادرك انه شيشرون الذي تقدم ذكره

ــ جئت الى هنا لامر افضل من الصلاة عندي . وانني اقدر ان امس بيديَّ يد هذه المرأة وتبقى يدي طاهرة اطهر من يدك

وكأن الشيخ ملَّ هذا الخصام بين ابنه وذلك القزم او انه رأى الحق في جانبه . في ملاحظته . فقال لابنه . لوسيوس لا تجاوب . ثم التفت الى شيشرون وقال بسكينة العقلاء

ــ ما اسمك يا بني . فاجاب شيشرون ــ اسمي ابن الارض

فابتسم الشيخ وقال ــ كلنا ابناء الارض يا بني ولكني احب ان اعلم اسمك لانني سررت بانني وجدت في مكان كهذا المكان رومانياً يقول ما تقول

فقال شيشرون وكان لا يزال في نزقه . وانت ما اسمك ياسيدي

فاجاب الشيخ ضاحكاً . اسمي سنيكا يا بني

فلما سمع شيشرون اسم «سنيكا» تراجع الى وراء مدهوشاً . فلمح الشاب دهشته فابتسم قليلاً . اما الشيخ فقال بجدٍّ متلطفاً

ــ لا نعتب عليك يا بني لانك لم تعرفنا . نعم انا سنيكا المعلم في رومه وهذا ابني لوسيوس وقد جئنا الى هذه البلاد للسياحة فيها ترويحاً للنفس من عناء المعيشة في رومه وجوّها المضطرب . ولما وصلنا الى مجدل سمعنا بخبر هذه المرأة وَبلغنا الساعة سقوطها امام بيتها بنوبة عصبية فجئنا نفتقدها شفقة عليها ورغبةً في مشاهدة أثر من آثار الشقاء البشري في هذا الزمان

فلما تحقق القزم شيشرون ان الرجل الذي أقدم على اهانته بمثل ذلك الكلام هو

سنيكا المشهور اديب رومه الذي كان يقرأ كتاباته بلذة تحت نخلة بجانب بيت مريم كما ذكر لما ذلك في ما تقدم اسقط في يده وحار في امره. وبعد ان تلعثم قليلاً تقدم باحترام من الشيخ الجليل وقال

ـ عفواً يا مولاي عن جرأتي وغضبي . ومثلك يعفو عن مثلي . وقد اثر بي قولك انك لا تؤاخذني بما قلتُ وفعلتُ لاستحسانك قولي وفعلي . فان هذه الشهامة خليقة باديب الرومان وعظيم البيان . ثم التفت الى لوسيوس ابن الشيخ وقال : وانتَ يا سيدي لستَ باقل شهامة من ابيك الكريم . ولا عجب في ان يكون هذا الشبل من هذا الاسد . وانني كمغرم بالادب والبيان اتمنى ان تكون خليفته في رومه وسيد البلغاء والحكماء فيها . فعفواً عن جرأتي ووقاحتي

ثم التفت شيشرون الى الشيخ وقال . هل ياذن لي مولاي بان اطلعه على السبب الذي جعل هذه المرأة المسكينة في هذه الحالة . فاجاب الشيخ نعم انني احبُّ الاطلاع عليه ولكن يجب علينا اولاً ان ننظر في مداواة علتها واذهاب آلامها

فالتفت شيشرون الى مريم وهي على فراشها وقال . اظنها استراحت الآن لانني لا ارى عوارض الألم والنوبة في جسمها كانَّ نوبتها انتهت باستفراغها وسعها في غضبها

وفي الواقع ان مريم كانت في هذا الحين راقدة براحة وهدوء في سريرها وقد ذهبت عن وجهها وجسمها دلائل الاضطراب التي كانت فيها

فدعا شيشرون الشيخ والشاب الى شجرة في الكرم خارج البيت قائلاً وهو يبتسم

ـ ان هواء هذا المكان ثقيل رديء فلنخرج يا سيدي الى تلك الشجرة فانني كثيراً ما جلستُ تحتها اقرأ كتاباتك السامية

ولما صار الثلاثة تحت الشجرة اخذ شيشرون يقص على سنيكا وابنه قصة مريم قبل سقوطها ويصف له نفسها واحوالها ويسرد له كثيراً من الاحاديث التي حدثته بها وهما على انفراد . فاعجب الشيخ والشاب بحالة نفس مريم وافكارها. والتفت الشيخ الى ابنه وقال له : اما قلتُ لك يا لوسيوس ان هذا كان نتيجة مبادئنا ومدنيتنا. ثم انتهى بشيشرون الكلام الى قصة يوليوس ومريم وكيف خدعها وهجرها بعد ان وعدها ان يعيش معها طول عمره معيشة شرف وكرامة. وانه يظهر ان مريم تحب يوليوس حباً شديداً فاصابتها هذه النوبة الشديدة بعد هجره اياها . قال شيشرون . وقد هجرها يا مولاي بحجة انه مدعو الى رومه لامر هام والحقيقة انه سافر الى اورشليم ليتزوج هناك بفتاة رومانية ذات مال طائل وقد كتمَ هذا عن مريم

الفصل الخامس

﴿ كتاب وشاب ﴾

وفي صباح اليوم التالي كانت مريم جالسة تحت تينة في حديقتها ورأسها مسند الى يدها تتأمل في الفضاء الواسع الذي امامها . وكان على وجهها مسحة من الاصفرار نشأت اما عن النوبة التي اصابتها امس واما عن اضطرابها وارقها في الليلة السابقة

وكانت مريم قد بكرت في ذلك الصباح بكور الغراب ولم تنبه حنه من نومها لتتمتع بلذة التأمل والتفكير وحدها اذ لا يلذ اصحاب الهواجس والوساوس شيء كالانفراد والتفكير في معزل عن الناس . ولكن لم ينقض عليها نصف ساعة تحت التينة حتى ابصرت حنه مهرولة نحوها وفي يدها رقّ للكتابة . وكانت حنه في هذا الصباح اجمل من مريم لانها كانت قد نامت نوماً طويلاً هادئاً هذا اذا كان معنى الجمال نضرة الورود في الخدود . ولكن جمال مريم كان جمالاً خاصاً بها لا يدانيه جمال . فلقد كانت كوردة نيسان جميلة في ذبولها ونضرتها

ولما صارت حنه عند مريم مدت اليها يدها وناولتها الرق وهي تضحك وقالت : اتظنين هذا الخط خط يوليوس

فلما سمعت مريم اسم يوليوس عبست وتناولت الرق دون اهتمام . وبعد ان القت نظرها عليه قالت غير مكترثة ليس هذا الخط خط هذا الكلب الروماني . فانه لو كتب لي لكتب بلغتنا لا باللغة الرومانية . فلعل احد هؤلاء الرومان الادنياء اراد المزاح فكتب هذا الكتاب . ولكن اين وجدته

فقالت حنه انني وجدته في نافذة غرفتك مطوياً وعليه حجر لئلا يطيره الهواء . اتظنين انه من شيشرون

فقالت مريم وقد رفعت شفتيها بازدراء وامرّت يدها على عينيها متنهدة . كلا فان شيشرون رآني أمس في الحالة التي كنت فيها وهو يعلم ان قلبي لا يحب المزاح في مثل هذه الحالة . ما لنا ولهذا الكتاب ايتها العزيزة حنه . انك تعلمين ان من كان مثلنا يجد في طريقه كثيراً من امثال هذه الصغائر . وهي اذا كانت عند فاعليها شيئاً يدل

على المزاح والمداعبة فانها عندنا دليل على السخافة والصغار . اعطيني يا عزيزتي ردائي الثقيل فان في عزمي التنزه في الوادي القريب لعلي استعيد شيئاً من قواسي التي فقدتها أمس .

فدنت حنه من مريم واخذت رأسها بين ذراعيها باسمة ثم قبلته وقالت : اا الى هذا الحد تحبينه يا مريم

فرفعت مريم رأسها مدهوشة وقالت من تعنين

فقالت اني اعني الشاب الذي جزعتِ لفراقه أمس ذلك الجزع

فقهقهت مريم وصاحت : تعنين يوليوس : قه قه قه ثم قالت انني احبه حبي لهذا الحجر الذي ابصق عليه . و بصقت على حجر كبير كان بجانبها . ثم مسحت جبينها بيدها واردفت قائلة : أتظنين من كان مثلي يُحِب اتظنين من كان مثله يُحَب . ان قلبي كهذا الحجر الذي بصقت عليه . وفي بصقي عليه بصقت على جميع البشر . اذهبي يا حبيبتي اذهبي وأتني بردائي واذا فرغت من إعداد الطعام وانتصف النهار ولم اعد فتغذي وحدك

فضحكت حنه وقالت تنزهي وانبسطي ابنتها العزيزة فقد قاسيتِ أمس آلاماً شديدة .

و بعد ربع ساعة كانت مريم سائرة في طريق الوادي مطرقة الى الارض . وكأن الحديث الذي جرى بينها و بين حنه قد اعاد القوة الى نفسها بعد الضعف والوهن الذي اصابها آنفاً . وهكذا حالات النفوس فان شيئاً صغيراً يثيرها و يقويها وشيئاً صغيراً يضعفها ويوهيها

وكانت مريم في هبوطها في الوادي تقف حيناً بعد حين عند الازهار البرية وتقطف اجملها . فجمعت منها ثلاث ضمات غرست احداها في شعرها واخرى في صدرها وحملت الثالثة في يدها . وكان نسيم الصباح يُميل الازهار والنباتات حولها . فلو رآها الشعراء حينئذٍ لقالوا ان تلك الازهار كانت تنحني وتسجد لجمالها . او انها كانت تنطرح نحوها لتحظى بنعمة الانضمام الى اخواتها المغروسات في شعرها وصدرها .

و يظهر ان مريم كانت قاصدة بيتاً قائماً في ما وراء الوادي على اكمة تقابل الاكمة القائم عليها بيتها . ولذلك كانت في طريقها تطيل النظر في جهة ذلك البيت لعلها ترى احداً فيه . فانحدرت بين كروم العنب واشجار التين وما وقفت في طريقها الامرتين

لتقطف في المرة الاولى حبة عنب وفي الثانية ثمرة تين · وقد مصت الحبة ولفظتها اما ثمرة التين فاكلت منها قطعة ثم رمتها · فكان ظاهراً ان مزاجها مضطرب في ذلك الصباح وقابليتها للطعام معدومة

واذ توسطت الوادي التفتت الى رمانة كانت قد اعتادت الجلوس تحتها وحولها الغنم والماعز والبقر ترعى فابصرت رجلاً مستلقياً على الارض وفي يده كتاب يقرأه فيه ويده الاخرى على رأس غنمة كانت ترعى بجانبه وتركت المرعى واخذت تنظر اليه ·

فقالت مريم في نفسها هذا هو الراعي ثم حادت عن الطريق وقصدته لعلّ شيئاً من اللبن ينفعها في ذلك الصباح ويردّ اليها قواها

ويظهر ان الرجل لم يسمع صوت قدمي مريم او سمعه ولم يلتفت اليها. فلما صارت بجانبه وقفت وقالت وقد شككّت في كونه راعي الغنم

— اين الراعي

فرفع الرجل رأسه من كتابه وجلس ناظراً في وجه مريم · فدهش لاول وهلة ثم تغلب على دهشته واجاب بلطف وادب : لستُ أعلم ايتها السيدة المحترمة فلعله صعد الى ما وراء الاكمة · هل تطلبين شيئاً منه

فاجابت مريم · انني اريد شيئاً من اللبن (الحليب) فقد ظمئتُ في طريقي وتعبت فلعلّ اللبن يرد اليّ قوتي

وكان الرجل في خلال ذلك يتامل في مريم ومريم تمعن النظر فيه · ويظهر ان نظر كل واحد منهما في وجه الآخر قد انتج نتيجتين متناقضتين · فان لوائح وجه مريم اتخذت بعد ذلك علائم الاستخفاف والهزء ولوائح وجه الرجل اتخذت علائم الدهشة والاحتشام ·

وفي الحقيقة ان شخصية كل منهما كانت تدعو الى ذلك · فان الرجل لما رأى نفسه امام سيدة كبيرة الهامة بارعة الجمال انيقة الملبس جريئة في الكلام حادة النظر تصاغر لديها واحتشم · وهي لما رات نفسها امام شاب في نحو الثانية والعشرين صغير الجسم حقير المنظر تعالت وشمخت

ولما سمع الشاب انها تطلب لبناً القى كتابه على الارض ونهض وهو يقول· اذا سمحت لي السيدة خدمتها بنفسي وكفيتها عناء انتظار الراعي

ثم تناول وعاء من فخار كان بجانبه بين امتعة الراعي واسرع الى بقرة فحلب منها شيئًا في الوعاء ودفعه الى مريم

فاثرت في مريم هذه العناية فتناولت الوعاء شاكرة ثم انزوت عنه واخذت تشرب اللبن . ولما ارتوت اعادته الى الارض وقالت . هذه الرمانة رمانتي وطالما جلست تحتها اسمع نشيد البلابل والحمام واصوات مزامير الرعاة من بعيد في هذا الوادي . ومنذ اسبوع كنت جالسة هنا في مكان هذا الكتاب اتأمل في الارض والسماء واذا ببلبل قد وقف على الرمانة فوقي واخذ يغرّد نغم يدًا لم اطرب من شيء في حياتي كطربي منه . ولم يكن بيني وبينه من المسافة الا طول انسان . ها. اسمع فانني اسمع صوت البلابل

ولم تكد مريم تتم عبارتها حتى رات بلبلاً قادمًا من بعيد يقصد الرمانة . فاشرقت اسرتها وضحكت واومأت الى الشاب ان يسكت ويجلس لئلا يطير البلبل ثم جلست متأنية وجلس الشاب والتزما السكون

وكان البلبل قد وقع على الرمانة ورفيق له وقع على تينة تجاهها . واخذ الاثنان ينشدان ويتجاوبان باصوات تثير الاحزان والاشجان . فكانت مريم تضحك ملء فيها ونفسها الصبيانية تتلهى بمنظرهما ونشيدهما كما تتلهى نفوس الموسيقيين باشجى الالحان الموسيقية . ولا عجب في ذلك فان نفسها كانت قد ربيت في الخلاء بين الاشياء والكائنات الطبيعية وألفتها . ويظهر ان بلبل الرمانة اقنع في نشيده بلبل التينة ان يأتي اليه فطار ووقع على الرمانة بجانب رفيقه واخذ الاثنان يتناشدان ويتداعبان ويتلاعبان . وكان الشاب في تلك المدة اشد اشتغالاً بمريم منه بالبلبلين فكان ينظر الى البلبلين ظاهرًا ولكنه كان ينظر الى مريم باطنًا . فكانت نفسه كانت مشتغلة عن بلابل الرمانة ببلابلها التي ثارت عند مشاهدتها مريم . فاختلس النظر الى مريم وهي شاخصة في الرمانة فراى ان لوائح وجهها قد اخذت تتغير . وراى ان قد حلّ فيه التأمل والتفكير محلّ الضحك والخفة واتخذ هيئة الحزن والكآبة الشديدة

وبعد عشر ثوانٍ رأى دمعتين تنحدران من عينيها على وجنتيها . فكانت هاتان الدمعتان نارًا أحرقت قلبه ودهش لها دهشة ما بعدها دهشة فاخذ يقول في نفسه من عسى ان تكون هذه المرأة الجميلة الانيقة الجريئة ؟ وكيف انفردت في هذا الوادي ؟ وما سبب ضحكها وخفتها منذ حين وبكائها الآن ؟ العلها مجنونة ؟ كلا فان كل شيء في عينيها وكلامها وملابسها يدل على عقلها . فما سرّ هذه المرأة الغريبة

ولم ينتبه الشاب في تفكيره الى هذا الكلام حتى صاح صائح من وراء الرمانة : يا قديس يوسف . ماذا تفعل عندك

فذعر البلبلان لهذا الصوت وطارا والتفت الشاب ومريم الى الجهة التي ورد منها الصوت .

ثم مسحت مريم دموعها ونهضت وسارت في طريقها دون ان تلقي سلاماً على الشاب . فشيعها الشاب بنظر حزين كئيب وقد زادت دهشته من امرها

وكان القادم راعي المواشي وقد عاد من حاجة ذهب لقضائها . فلما وصل الى الرمانة قهقه وقال : ما شاء الله ايها النبي يوسف كنت تجالس الكتب من قبل اما الآن فاصبحت تجالس النساء

ثم لم يمهله في الجواب فقال : وهل تعلم ايها القديس اية امرأة كانت جليستك

فحملق الشاب وقال اتعرف هذه السيدة

فقال الراعي : تقول هذه السيدة ؟ ؟ قه قه قه .. انك تسميها سيدة ولكنها ايها القديس ليست بسيدة .. بل هي ليست بامراءة

فزاد الشاب حملقة وقال : ما هذا المزاح البارد يا متى . اخبرني ما مرادك

فقال الراعي : اقول لك ان هذه الجثة التي كانت جالسة بجانبك ليست بسيدة ولا امراءة

فقال الشاب متهكماً : لعلك تزعم يا ابله انها رجل

فقال كلا كلا يا قديس . وانما هي شيطان ... استغفر الله . بل هي شيطان يسكن فيه سبعة شياطين .. يا رب ارحم . وكيف تركتها تدخل بين غنمي و بقري . هل لمست بعضها ؟

فقال الشاب كلا

فقال الراعي الحمد لله . اشكر الله

فقال الشاب ولكنها شربت من لبن حلبته انا من تلك البقرة

فصاح الراعي . يا رب ارحم غداً تموت البقرة . لا ريب ان احد الشياطين السبعة قد دخل فيها

ثم اسرع الراعي الى البقرة واخذ يفحص وجهها وثديها و بطنها وظهرها ولوائح الاهتمام بادية في وجهه

وكان الشاب في اثناء ذلك يتامل في كلام الراعي مستغربا . فلحق به وقال

— اخبرني الآن بهدوء ما مرادك من كلامك ومن تكون هذه المرأة

فقال الراعي وقد ابتسم لاطمئنانه عن سلامة بقرته : انني اخبرك عن حقيقتها بكلمة واحدة فيكفي ان اقول لك انها (مريم المجدلية)

فزاد استغراب الشاب وقال . انت تعلم انني لم افد على هذه القرية الا منذ يومين فانى لي ان اعرف هذه المرأة لمجرد ذكرك اسمها

فاجلس الراعي الشاب على العشب واقبل عليه يخبره همساً في اذنه خبر مريم المجدلية . وكان الشاب تارة يصفر وطوراً يحمر في اثناء حديث الراعي . ولما اتى الراعي على حديثه نهض الشاب وقد تابط كتابه وقال وقد اظهر عدم المبالاة . انني مودعك الآن يا متى الى الملتقى . ثم سار وراء مريم وهو يقول في نفسه . وااسفاه واضيعتاه لنفسك ولجسمك يا مريم

الفصل السادس

﴿ ضربة اخرى ﴾

ويظهر ان مريم اختصرت نزهتها بعد هذه الحادثة وعدلت عن المسير الى البيت الذي اشرنا اليه آنفاً فلما عادت الى منزلها كانت عيناها حمراوين منتفختين من البكاء . فدخلت الى المطبخ وغسلت وجهها بماء بارد فاستقبلتها حنة ضاحكة وقالت . قد قدم شيشرون في غيابك وترجم لي الرسالة التي وجدتها في النافذة وهذه ترجمتها . ولكن هل تعلمين كاتبها . فاجابت مريم دون اكتراث والضجر بادٍ في وجهها . كلا لا اعلم . فقالت حنه ان كاتبها هو الشيخ الروماني العظيم الذي زارك امس مع ابنه

فدهشت مريم وقالت باهتمام : سنيكا ؟ واين ترجمتها

ثم تناولت الرق وقرأت فيه الترجمة تحت الاصل وهذا نصها

« لقد زار هذا البيت روماني وشاهد فيه الانسانية المعذبة . وقد رام ان يجعل لزيارته هذه ذكراً في نفس المراة المسكينة التعيسة التي تقيم فيه . فلو قدم لها هدية ثمينة لتبقى لديها

تذكاراً لزيارته لمكان في هديته اهانة له ولها فضلاً عن دلالتها على اشتراكه في الرضى عن تعاستها وتشجيعها عليها ... وعنده ان هذا الكتاب خير هدية منه اليها

« مررت في مجدلـــ تحت سماء زرقاء فوق ارض خضراء فرأيت وردة فيحاء في مزبلة

« مررت في وادٍ من زجاج متحطم بين بقايا مواد قديمة فرأيت فيه ماسة جميلة ساطعة كالشمس ولكنها ملوثة مهملة

« ايتها الوردة ايتها الماسة . لم تُخلقي لتكوني حيثما انتِ . اهربي اهربي من مكانك ليظهر للناس جمالك . نفسك من جوهر ولكن جسمك من وحل . اخرجي اخرجي لتطهير نفسك وجسمك

« كل شيء طاهر حولك في الارض والسماء . كل شيء في الطبيعة مطمئن محبوب محمود . ازهار البر ترفع راسها بعزة وكبرياء مفاخرة بجمالها وعبيرها . طيور البر تسبح خفيفة نشيطة وتتداعب على الاغصان مسرورة بالفتها . البشر حولك يتعبون و يشقون ويضنون وا حمال الهموم تثقل نفوسهم ولكنهم مسرورون بانهم يعيشون وهم اهل لاحترام بعضهم بعضاً . وانتِ انتِ ايتها الوردة والماسة مع كونك اجمل واظرف منهم تعيشين مضطربة منفردة ذليلة منبوذة مكروهة » . فلما قرات مريم هذا الكتاب صرفت وجهها عن حنه لئلا ترى عينيها ثم وضعت الكتاب في ثوبها ودخلت الى غرفتها

ولما صارت منفردة في غرفتها اغلقت الباب ووضعت كفيها على وجهها كانها تروم حبس دموعها وانطرحت على فراشها . و بعد ان بكت برهة عادت فجلست واخرجت الكتاب ووقفت فيه عند هذه العبارة

« طيور الجو تسبح خفيفة نشيطة وتتداعب على الاغصان مسرورة بالفتها »

فيا للصدفة والاتفاق الغريب . ان مريم بكت تحت الرمانة من منظر زوج من البلابل يتداعب و يتآلف امامها بينما هي فريدة في الدنيا كلها . وهوذا الاديب سنيكا يلطم وجهها في كتابه بهذا المثَل صدفة واتفاقاً ويُبكيها مرة اخرى من اجله

ولما استبطأت حنه مريم دخلت الى غرفتها فسمعت من الباب صوتها فهرعت اليها لان المسكينة كانت حضرتها نوبتها . و بعد حين اخذت مريم في اثناء النوبة تصرخ صراخ الالم والعذاب . فاخذت حنه تفك ثيابها عنها وتتولى مداراتها . و بينما كانت مريم تنتفض من الالم وتصرخ وحنه تعنى بها و تنظر الى الباب والى النافذة

لعلها ترى شيشرون قادماً لمساعدتها واذا برأس قد اطلّ من النافذة ونظر في الجهة التي كان صراخ مريم وارداً منها . واذ وقعت عيناه على عيني حنه عاد بجأة واختفى وراء النافذة

فاسرعت حنه الى النافذة فراءت منها شاباً يُسرع الخطى و يبتعد عنها فاسرعت الى الباب فخرجت منه فابصرت على الطريق امامها شاباً في زهرة الشباب وفي يده كتاب . فاستوقفته فوقف ولكن يظهر ان جميع دم الشاب انصرف الى وجهه حين استوقفته حنه فاصبح قرمزي اللون الا انه كان مع شدة تاثره يُظهر ثبات الجاش والسكينة

اننا نحكم على عيوننا فنجعلها تخفي ما نروم اخفاءه . وعلى اجسامنا فنجعلها تسكن وداخلها مضطرب ثائر كبركان . ولكننا لا نستطيع التسلط على دمنا فهو يفور او يغور بالرغم منا ويدل على بواطننا

فساءلت حنه ذلك الشاب متلطفة ان يتفضل و يدخل معها الى المنزل لمساعدتها على معالجة ابنة عمها المتالمة لانهما منفردتان في البيت وهي تخاف وحدها . فاسرع الشاب واجابها الى ما طلبت وهو في الحقيقة مسرور بهذه المساعدة

وبعد نصف ساعة فتحت مريم عينيها بهدوء فوقعتا على هذا الشاب وكتابه في يده . فتولتها دهشة شديدة . اما الشاب فابتسم لها متلطفاً وقال : يظهر ان نزهتك في الوادي قد اتعبتك ايتها السيدة فكيف حالك الآن

فنظرت مريم في وجهه تفحصه جيداً واجابت : حالي كما ترى

فقال الشاب انني منذ فارقتني تحت الرمانة رايت في وجهك انك متالمة فهل تشكين مرضاً

فاجابت مريم وقد تثاءبت دلالة على ضجرها من حديثه ـ انني اشكو ما ترى

فقال الشاب ـ انني اراك في خير واسال دوامه لحضرتك . وما هذا الا نتيجة التعب وشدة احساس السيدات . ثم قال وقد اشتدت حمرة وجنتيه : اما انا فانني اتيه في هذه الارض وكتابي في يدي كما ترين . ولا يلذ لي شيء كالسياحة والقراءة . فبالسياحة اقوي جسمي و بالقراءة اقوي نفسي . وقد مررت الان اتفاقاً من هنا فسمعت صوت الآلم ثم ابصرت ابنة عمك فسالتني ان ادخل لمساعدتها على العناية بك فدخلت مسروراً بان اقوم بخدمة لها ولك

فتثاءبت مريم مرة اخرى واجابت شكراً لك ثم غلب عليها التثاؤب لضجرها فوضعت كفها على فمها وتثاءبت ايضاً · وبعد ذلك اغمضت عينيها وابقتهما مغمضتين كأنها تنظر بهما في داخلها

فاغتنم الشاب هذه الفرصة واخذ يتأمل في وجه مريم · فمن رأى عينيه وهو ينظر بهما الى هذه الحسناء رأى أجمل سذاجة ودهشة ولذة اجتمعت تحت جفني انسان · وانما كانت دهشة عينيه حينئذٍ كدهشة ولد رأى شيئاً لم يرَ مثله في حياته

وكأنَّ الشاب شعر بان اغماض مريم عينيها بمثابة دعوة له ان ينصرف · فلم يجد من الادب وسلامة الذوق ان يطيل الاقامة في ذلك المنزل الذي دخل اليه وجلاً خائفاً · ومن جهة أُخرى فانه كان يتمنى ان يقع له فيه ما يمكّنه من الاقامة فيه حيناً ريثما تنتبه مريم لرغبته في محادثتها والاطلاع على حالة نفسها

وبينما هو يفكر بذلك وقد همَّ بالانصراف واذا بحنه قد دخلت وفي يدها رسالة · فنادت مريم ففتحت مريم عينيها · فاومأت اليها حنه ان تتبعها · فنهضت مريم ضعيفة خائرة القوى · ولما صارت عند حنه في الغرفة الثانية دفعت اليها حنه الرسالة فقرأتها مريم وعبست · ثم فكرت قليلاً · ثم أمرَّت يدها على جبينها وقالت ولكنني مريضة يا رباه · ثم فكرت حيناً · وبعد ترددها هذا ذهبت الى خزانة ملابسها وتناولت منها ثوباً ناصع البياض مزيناً الخز زينة ولعله كان أجمل أثوابها · ثم قصدت الماء فغسلت وجهها ورتبت شعرها ولبست ثوبها ودنت من ضمة زهر من القرنفل كانت في النافذة فقطفت منها ثلاثاً واحدة حمراء غرستها في شعرها واثنتين واحدة بيضاء وواحدة وردية علقتهما في صدرها فوق قلبها · ثم خرجت من المنزل كأنها سائرة الى مأتم لا الى نزهة او ملهى لفرط الكآبة التي كانت بادية في وجهها

اما الشاب فانه لما رآها قد انصرفت دون ان تلتفت اليه لدغت قلبه عقارب الغضب لاحتقارها أياه الى هذا الحد · فخرج من المنزل دون ان يحيّي رفيقتها حنه

الفصل السابع

انقضاض الصاعقة

وقد خرج الشاب من المنزل ونزل الاكمة من الجهة المؤدية الى قرية مجدل وهي الجهة التي تقابل الجهة التي جاء منها من تحت الرمانة · وكان في اثناء مسيره يقول في نفسه :

ما كان ينقصني الا احتقار هذه المرأة الساقطة · لقد سارت دون سلام ولا كلام كانني احد خدمها او كأنني تطفلت عليها في منزلها تطفلاً · ما شاء الله ماشاء الله · هذه اخلاق امثال هؤلاء النساء الساقطات الغبيات · حقاً انني اخطأت خطاء عظيماً بلحاقي بها الى منزلها وبتدنيسي قدمي بدخولي اليه

تلك كانت هواجسه في نزوله نحو القرية · الا ان للمرأة الجميلة جاذباً قوته أشد من قوة الاحتقار والازدراء · فانه لما فرغ غضبه من احتقارها اياه رجع الى نفسه وقال : على من اعتب ؟ أعلى أمرأة شقية ساقطة لا قيمة عندها في الارض لغير المال والجمال · وماذا انتظر من نفس معذّبة تمسي وتصبح وهي في حالة الجنون والهياج والخوف من الغد ؟ انني انا المجنون جنوناً فوق جنونها · فيجب عليّ ان اشفق عليها وارفق بحالها بدل ان يسوءني احتقارها

والعادة ان بين (الشفقة) و (الميل) المسافة قريبة جداً · فتدرّج الشاب الى قوله :

ولكن لماذا تزيّنت بهذه الزينة قبل انطلاقها من منزلها · انها منذ حين كانت تتنزه فما خرجت اذاً الآن الى النزهة · ولو كان خروجها الى النزهة لما عنيت تلك العناية بتزيين جسمها ووجهها · فلماذا خرجت اذاً · وما هذه الرسالة

التي كانت في يد رفيقتها واستدعتها من اجلها الى الغرفة الأخرى

فهنا خطرت للشاب خواطر غيَّرت عواطفه من جهة المرأة فوقف برهة يفكر · ثم تغلب على نفسه واستمر في سيره · ولكنه ما خطا خطوتين حتى عاد فوقف · وكان في وقوفه مبهوتاً ينظر الى القرية المنبسطه تحته ولكنه في الحقيقة كان لا ينظر الى شيء · ويظهر ان الجاذب الذي كان يجذبه الى وراء تغلب عليه فالتفت نحو المنزل فوجد حنه في النافذة ورأسها مسند الى يدها · فقال في نفسه ان عدتُ الآن من حيث أتيت رأتني هذه المرأة اتبع رفيقتها· قال هذا ثم أظهر انه سائر من جهة غير الجهة التي سارت مريم فيها · ولما غاب عن المنزل عطف نحو الطريق التي رأى ان مريم سلكتها

وكانت هذه الطريق نفس الطريق التي سلكتها مريم في الصباح وهي المؤدية الى الوادي حيث اجتمع الشاب بمريم تحت الرمانة · فاسرع الشاب يقتفي اثر مريم فرآها من بعيد قد هبطت في الوادي · فحاد عن تلك الطريق وقصد الوادي من طريق غير مطروقة · فما كاد يشرف على الوادي من اكمة فوقه حتى رأى مريم صعدت من الجهة المقابلة ودخلت بيتاً كان مبنياً على الجانب الآخر فارتعد الشاب ووقف يتأمل

وبعد وقوفه حيناً انحدر الى الوادي فمرَّ من تحت الرمانة حيث لقيته مريم في الصباح وسمعت معه تغريد البلابل ثم اجتاز الوادي وصعد من الجانب الآخر في الطريق المؤدية الى ذلك البيت

وكان الشاب في اثناء صعوده يشعر بشيء لم يشعر به في حياته كلها · وقد وقف مرتين في الطريق وعزم على الرجوع الا انَّ ذلك الشيء كان يدفعه الى الامام · فلما صار على مستوى البيت تقدم نحوه بقلب خافق واطراف باردة· ولكنه ما وصل الى نافذته حتى ارتعد واصطكت ركبتاه وتبلل جبينه بالعرق ·

ذلك انه سمع في داخله من وراء النافذة ما علم منه كلمح البصر السبب الهائل الذي من أجله زارت تلك المرأة الشقية ذلك البيت

فهمَّ الشاب بان يعدو مسرعاً ويعود عن ذلك البيت اللعين · ثم تجلد وسار سيراً اعتيادياً · فطرق اذنه صوت ما كان في الداخل من احتكاك الكؤوس وهتاف السرور وقهقهة البطر وغناء طبّق الغرفة · وقد سمع جيداً صوت مريم يغني الغناء التالي مقروناً بصوتي رجلين ايضاً · وهذه ترجمة ذلك الغناء

لماذا أشرقت الشمس في هذا اليوم
اغربي اغربي يا شقية نحن نطلب الليل
يا ليلُ · يا ليلُ تكفيك شمس بنت الكروم
ووجه الحبيبة الخالي من أثر الهموم

وهنا كان الشاب قد ابتعد عن البيت في مسيره ولم يعد يسمع الا غناء مريم بصوت رفيع يرن في اذنيه دون ان يفهم الكلام · فلما غاب عن البيت في منحدر قريب قصد الى شجرة وجلس تحتها مضطرباً هالع الفؤاد وقد اخذ يمسح بكمه العرق الذي كان يتصبب من وجهه

ثم أخذ رأسه بين يديه وشرع يحلم · فتذكر ملتقاه بهذه المرأة تحت الرمانة وكيف احترمها واكرمها · وكيف رآها في البيت في حالة الضعف والكآبة · وكيف يراها الآن في حالة البطر واللهو· ثم تذكر السذاجة الصبيانية اللطيفة التي رآها في عينيها وجمالها الساحر الذي صنعه الخالق ليكون دليلاً على قدرته وكماله تعالى لا ليلقى مدنَّساً في المزابل — تذكر كل ذلك فضاق صدره وخار عزمه وحار فيما يفعل · أيفرُّ من ذلك البيت والوادي والقرية كلها ابتعاداً عن آثار الشقاء البشري وهرباً من رؤية هذه الشقية مرة أخرى ؟ أم يهجم على البيت ويدخل على اولئك الادنياء اللئام فيبصق في وجوههم ويصيح بتلك المرأة ان

تخرج من مكان يدنسها وتدنسه وتهين فيه في داخلها نفسها الخالدة الابدية التي انعم الله عليها بها لتصونها وتؤدبها وتقدسها

مسكين هذا الشاب · انه كان يظن ان غضبه وجزعه واصطكاك ركبتيه وتصبب العرق من جبينه — كلها ناشئة عن شفقته على مريم المسكينة · وما درى ان سببها كان دخول شيطان منها الى نفسه · ولو كان صاحبه الراعي هناك لقال له (يارب ارحم ياقديس يوسف ان احد شياطينها السبعة دخل فيك)

وما هو هذا الشيطان ؟ ان القارئ يعرفه دون ان نصفه · هو الروح الخبيثة الطيبة التي تصيب النفوس الحساسة كما يصيب الكرى الجفون · هو الداء الذي يتسرّب الى القلب والنفس والعقل تسرّب الكهربائية دون سلك فيستولي عليها دون نزاع ولا دفاع · هو فردوس الارض وجحيمها · لذتها وألمها · خيرها وشرّها · نورها وظلامها · هو (الحب الفجائي) الذي يسميه كتّاب الافرنج ,, ضربة الصاعقة '' وهم ينكرونه في غير الروايات · ولكن الاسباب تهيئ المسبّبات

لما رأى الشاب مريم تحت الرمانة اعجب بجمالها وامتشاق قوامها وتناسب اعضائها وتأنق لباسها · فاحتشم لديها احتشامه لدى سيدة كريمة احترامها فرض على الرجل · ولما علم من الراعي بحقيقة حالها اشفق عليها · ولما دخل الى منزلها بدعوة من اختها لمساعدتها على معالجة مريم في نوبتها ورأى ذلك الجمال الغض والجسم البلوري ملقى بحقارة وضعف على فراش الألم والشقاء زاد ميله اليها والى اغاثتها وانهاضها من كبوتها · وخيل له انه من الواجب عليه هدايتها الى الصراط القويم · ولكنه لما رآها تتزين وتتبرج وتخرج من منزلها دون ان تلتفت اليه · ثم رآها تدخل البيت الذي تبعها اليه وسمع غناءها مع بضعة من الشبان وبطرها بينهم بعد كآبتها الماضية — عرته حينئذ الدهشة اولاً والغيرة ثانياً · وليس شيء كالغيرة يُذكي نار الحب ويلقي صاعقته في القلب

فيا ايها القديس يوسف · قبل ان تطلب طريقة لانقاذ هذه المرأة الشقية اطلب طريقة لانقاذ نفسك · لانك كنتَ كالفراش الذي يحوم في الظلام حول المصباح ويلقي نفسه عليه فيحترق

الفصل الثامن

اول لقاء

وفي اليوم التالي بكر الشاب يوسف الى الوادي وجلس تحت الرمانة يقرأ كتابه · وما كان في الحقيقة يقرأهُ ولكنه كان يتلهى منتظراً مرور مريم هناك · وكان يوسف في ذلك الصباح اصفر اللون منتفخ العينين خائر القوى كأنه لم يرقد الليل كله · الا انه كان في عينيه مع ضعفه هذا برق غريب هو اثر الصاعقة التي انقضّت أمس في نفسه على نفسه · فكانَّ هذا الشيء الجديد الذي اصابه تسلط على قواه فبث فيها الحياة مع ضعفها ووهنها وخلقها خلقاً جديداً

وفي كل دقيقة كان يوسف يرفع رأسه من الكتاب ويسرح نظره في ما حوله لعله يرى مريم · وكلما سمع حفيف ورق الشجر او صوت تنقل المواشي في العشب رفع رأسه وصار كله اعيناً ترى · الا انه ما كان يجد ضالته ولا يقف لها على اثر · فكان يعود الى كتابه متنهداً

ولما كاد ينتصف النهار سئم يوسف الانتظار فنهض بضجر وغضب وسار في طريقه يقصد حوالى بيت مريم لعله يراها قادمة او ذاهبة من طريق اخرى · فلقي الراعي قادماً بغنمه نحو الوادي وهو يحدوها بغناء مزماره غناء محزناً تتردد صداه في الوادي فتجاوبه الطيور بتغريدها والاشجار بحفيفها · فلما أبصر الراعي صاحبه يوسف من بعيد صاح به

الى اين تمضي يا قديس هل تفتش على (سيدتك)

فسلم يوسف على الراعي تسليماً كان الضجر واشتغال البال ظاهرين فيه. فقال له الراعي • اني اراك اصفر الوجه فماذا اصابك من أمس الى اليوم • هل اقلقت ,, سيدتك '' احلامك في الليل • ثم ضحك الراعي وقال • اظن انك بعد حين ستلقي كتابك هذا من يدك وتقيم في بلدنا على الدوام • اذهب يا قديس وتعذب مع الشياطين اما انا فلا أبيعك هذه الزهرة البيضاء الصفراء بجميع جيلات اوروشليم والمجدل

قال ذلك ثم قطف زهرة من زهر المرجان كانت بجانبه وغرسها في شعره وسار ينفخ بمزماره وغنمه تحيط به كأنه ملك في مملكته

فوقف يوسف حيناً يتأمل في هذا الراعي وفراغ باله وقناعته وعيشه الساذج النقي بين الاشجار والازهار في وسط البرية بعيداً عن كل ما يثير النفس ويقلقها. وقابل بين نفس الراعي الراضية ونفسه الثائرة حينئذ • فهمّ ان يعود الى ما بين غنم الراعي واشجاره وازهاره وهدوء الطبيعة السائد في نفسه وفي ما حوله من الكائنات • ولكن المسكين كان يجهل ان نفوس البشر لم تُصنع كلها بقالب واحد ففيها ما من طبعه الرضى والسكينة الى الاعتيادي المألوف والمشي على الارض مشياً مقروناً بسلامة دائمة • وفيها ما من طبعه الطمع في ما وراء الاعتيادي المألوف والتحليق في جو الاوهام والاحلام فوق مواثيق البشر وعاداتهم ومطالبهم المادية وان كان في هذا التحليق سقوطها احياناً من علٍ الى أسفل

وما كاد يوسف يخطو خطوتين مبتعداً عن الراعي حتى سمع صراخ الراعي •

يا قديس يا قديس

فالتفت يوسف فقال الراعي بأعلى صوته • انظر اليها فانها تفتش عليك بينما انت تفتش عليها • ما هذه الساعة السوداء يا رباه

ثم تناول الراعي عصاه وهجم بها على غنمه يدفعها بها من الطريق الى جوف الوادي ويصلي بصوت مسموع الصلاة التي تطرد الشياطين

فمد يوسف بصره نحو الجانب الثاني من الوادي فابصر مريم هابطة من جهة البيت الى الوادي تقصد العودة الى منزلها على ما يظهر · فمشى قلبه في صدره حين رآها ماشية في طريق تنتهي اليه · وأخذ يتلهى بقطف ازهار البرية ليمكنه ان ينتظرها وتلحق به · اما الراعي فكان مشغولاً بدفع غنمه من طريقه والفرار من مريم لئلا يتعلق بعض شياطينها بمواشيه فترديها ···

وكانت مريم في ثوبها الذي لبسته أمس حين كان يوسف في منزلها · الا ان زهور القرنفل التي كانت قد قطفتها وعلقتها بشعرها وصدرها كانت قد ذبلت وا أسفاه ولذلك القتها · ومن يعلم كم زهرة جددت في شعرها وصدرها من ظهر أمس الى ظهر اليوم ؟ ولكن اذا كان ذلك مجهولاً فقد كان معلوماً ظاهراً أن زهرة جمال مريم وورد خدودها قد ذبلت بين أمس واليوم ذبولاً بيناً · فقد كان لونها ضارباً الى الصفرة والكآبة بادية في كل وجهها · فمن رآها اليوم في هذه الحالة وسمع أمس قهقهتها وغناءها بطرها من وراء النافذة لا يظن ان المرأتين هما واحدة ·

وكان يوسف كلما قطف زهرة نبض قلبه نبضة لظنه ان مريم قد وصلت اليه · فلما سمع وقع خطواتها وراءه التفت وهو يكاد يختنق لصعود دمه الى رأسه · ولما وقعت عينه على عينها لم يجد كلمة يقولها فاشار اليها برأسه مسلماً · اما مريم فوقفت لانها على ما يظهر كانت متعبة ثم قالت له بلهجة عدم المبالاة التي الفها عندها

— ماذا تفعل هنا ألا تزال تغذي نفسك وجسدك

فازداد اضطراب يوسف لهذا التهكم منها وهمّ ان يجيبها بجواب هائل

حضره على لسانه ولكنه ملك عنان نفسه وقال وهو يرتجف ويخفي غضبه مخففاً جوابه

— قد اكون ممن يقوّون اجسامهم ونفوسهم بالرياضة في الخلاء ولكن لا شك في ان جنابك ممن يميتون نفوسهم واجسادهم

فرفعت مريم رأسها وشخصت اليه وقد دهشتها هذه اللهجة التي نطق بها يوسف كأنه ذو سلطة عليها • ثم غلب لديها الضحك على الدهشة مع كآبتها وضجرها في ذلك الصباح فضحكت وقالت

— انك اذا استمررت تغضب عليَّ وتسيء بكلامك اليَّ ايها السيد فانك تمنعني من الاستراحة هنا فانني تعبت من نزول الوادي واريد الجلوس هنيهة طلباً للراحة

فسكت يوسف ولم يجب • فجلست مريم على بساط العشب والزهر وقد تنهدت تنهد الراحة ثم قالت مبتسمة :

— حقاً ان التنزه في الخلاء جميل جداً • فانني نهضتُ في هذا الصباح باكراً فهبطتُ في هذا الوادي ومررتُ تحت الرمانة لعلي أراك ثم أمعنتُ في السير فاجتزت الوادي الى الجانب الآخر وطفتُ الآكام • • •

فهنا لم يستطع يوسف صبراً لما كان يعلمه من كذب كلامها فقطع حديثها وقال بكل بلادة دون ان يرفع رأسه من الارض وهو يتشاغل بقطف الازهار

— حقاً ان هذا النهار جميل الا أن الشمس محجوبة وراء غيمة سوداء قذرة

فسكتت مريم لرؤيتها ان خشونة الشاب وسكينته هذه وراءهما ما وراءهما • فحل لديها التأمل محل الخفة والاستخفاف • وأخذت تتساءل ما شأن هذا الشاب الغريب الذي يغضب لسوء ظنه بها • وما الداعي الى غضبه اذا كان لا يهمه أمرها • فسألته

— ما اسمك ايها الشاب الظريف

فضحك يوسف وقال اسمي متى . فقالت هل انت من مجدل فانني لم أرك الا أمس . فضحك وقال : انا من مجدل ومن كل بلد لان وطني الارض بتمامها . فضحكت مريم وقالت انا اهنئك بهذا ولكن أين تقيم وما هي صناعتك . فقال لا أقيم في مكان ولا صناعة لي . فقالت مريم بشيء من الدلال والتلطف . انك مازح . فسكت يوسف

ولم تمر عشر ثوانٍ على سكوت يوسف حتى ظهر في الطريق شاب يمشي الهوينا . فلما أبصرته مريم صاحت هذا شيشرون . فبرد الدم في عروق يوسف واقشعر بدنه فرفع رأسه فابصر شبحاً قادماً فتناول كتابه من الارض دون ان يمعن النظر في الشخص القادم أو يتبينه ثم ترك قطف الازهار وتأبط كتابه وسار موغلاً في الحقل دون ان يحيّي مريم أو يلقي نظره نحوها

فدهشت مريم أولاً ثم ضحكت وأخذت تنادي يوسف . فلم يلتفت يوسف اليها . فأخذت مريم تقهقه وتناديه ويوسف مضطرب مرتجف يسير على غير هدى دون ان يلوي على شيء . وبعد حين مرّ الشخص القادم في الطريق امامها دون ان يلتفت نحوها ايضاً فنادته مريم : شيشرون شيشرون . فلم يلتفت شيشرون واستمرّ سائراً . فنهضت حينئذ مريم غضبى ولحقت بشيشرون فامسكت بكتفه ودفعته قائلة : هل صرت أصمّ يا بارد

ولا ريب في ان القارئ يعرف شيشرون الروماني الاحدب الذي تقدم ذكره في الفصول الاولى من هذه الرواية

فالتفت اليها شيشرون بعظمة وأنفة وقال . انك ايتها السيدة تعلمين انني لا أحب ان أراكِ أو التقي بكِ خارج بيتك . فأرجو ان تتركيني الآن لانني هابط الى القرية لاخذ رسالة وردتني من اوروشليم مع أحد مكاري القرية

فدمعت عينا مريم اذ لم يفتها سبب فرار الشاب منها حين سمعها تذكر اسم شيشرون وفرار شيشرون حين سمعها تكلم شاباً في الحقل . فوقفت في مكانها جامدة كالصنم لا يتحرك منها عضو غير عينيها وقلبها . ثم تناولت منديلاً من جيبها ومسحت به دمعها

الفصل التاسع

﴿ ضيافة ﴾

ثم عادت مريم الى حيث كانت جالسة على العشب وأطرقت تفكر وتنكت الارض باصبعها . وكان تحت نظرها على الارض الازهار الصفراء والبيضاء والحمراء . وأشعة الشمس الذهبية حولها تملأ الفضاء . والهواء يهب عليلاً . والطبيعة الفلسطينية التي كانت يومئذ في أجمل زخرف خلافاً لما هي عليه اليوم (١) تنبسط امامها بجمالها وجلالها — ولكن مريم لم يكن يروقها شيء من كل ذلك بل كانت ترى حولها كل شيء أسود في نظرها . ذلك لان (ذلك السواد) كان في نفسها . مصداقاً لقول الفلاسفة المشهور (الجمال في عين الرائي)

لقد صرفت هذه التعيسة ليلة ونهاراً في البطر والخلاعة والمسرات . لقد جارت على جسدها ونفسها بكل انواع الجور وهي تصيح بنفس ثائرة جنونيـة (يا حياتي ياقصيرة امتلئي بلا فراغ) (راجع ذلك الغناء في الفصل الثاني) ومع ذلك لما خرجت من ذلك الوسط اللعين الذي تغضب الارض لانها تحته والسماء لانها فوقه وان كانت بعيدة عنه — اخذت تفكر وتحلم . ولم تجد في نفسها من تلك الليلة وذلك النهار غير أثر الاشمئزاز والالم . وحين رأت

---

(١) رنان

يوسف يفر منها فرار السليم من الاجرب وشيشرون صديقها الذي لم تتدنس له يد في يدها يفعل فعله لانه رآها واقفة تحادث شاباً في البرية — ثارت كبرياؤها وتحطمت نفسها لهذه الاهانة لانها كانت تستحقها. فقطر ألمها دمعاً من عينيها كما تقدم

وبينا هي مبهوتة تتأمل وتتألم واذ طرق مسمعها صوت كوقع حوافر الخيل. فالتفتت فأبصرت ثلاثة فرسان قد صاروا على مقربة منها . وكان الفرسان قد قبضوا اعنة خيلهم حين وصولهم الى مريم وساروا الهوينا وهم شاخصون اليها يتحادثون همساً . ثم انفرد احدهم وتقدم منها بعد ان ضحك لكلمة القاها الى رفيقيه وقال .عفواً ايتها السيدة اننا غرباء ونطلب مكاناً لمبيت أليس في القرية فندق

وكان الدمع لا يزال يجول في عيني مريم . ولكنها لما سمعت سؤال الفارس ورأت برق عينيه وضحكه مع ضحك رفيقيه وراءه شربت عيناها ما كان فيهما من الدمع فغاض دمعها الى حيث فاض وحلّت فيهما القوة والوقاحة الخبيثة محلّ التأمل والضعف والانكسار . فاجابت بابهجة المرأة التي اعتادت مصارعة الرجال وعودت نفسها الاستعلاء عليهم والا داسوها تحت اقدامهم

— من يطلب فندقاً ايها الفارس الجميل لا يطلبه على اكمة بعيدة عن القرية بل في القرية نفسها

فقال الفارس . ولكن خير الفنادق ما كان على الآكام . بعيداً عن ضوضاء الانام. كالمنزل الذي امامنا هناك

فقالت مريم . ليس هذا المنزل بفندق ايها الفارس ولكنه منزل امرأة فقيرة حقيرة تعيش فيه مع قريبة لها . وأهل القرية يزعمون ان الشياطين تسكنه اما أنا فلم أرَ فيه شياطين ولكني رأيت فيه خنازير

فقال الفارس وكان رفيقاه قد تبعاه ووقفا بجانبه ينظران بعيون متقدة الى تلك المرأة الفضة التي كانت كانها برج فضة . — وهل هما تقيان وحدهما وتقبلان الضيافة باجرة او بغير اجرة

فقالت مريم لا أعلم فلكم ان تسألوهما عن ذلك . ثم أطرقت تنكت الارض بأصبعها

وكأن الفرسان الثلاثة قد (سمروا) هناك في الارض امام مريم (تسميراً) لا يقدرون معه على التحرك من مكانهم ومفارقة هذه المرأة . ولذلك اقاموا برهة يتشاورون بلغة اجنبية عرفت مريم انها الرومانية . فكان مثلهم في تلك الوقفة مثل ثلاثة من كلاب الصيد ظفرت بأرنب سمين في البرية متحصن في وكره فوقفت امامه تحرك اذنابها وتفغر لهاتها مفكرة في طريق صيده . ولم يكن وا أسفاه لمريم خوف الارنب وذعره لدى هؤلاء الكلاب الثلاثة بل كان لها ألم طائر ذي قلب مريض وجنح مهيض ويطلب منه ان يرقص من الفرح لا من الألم

بعض النساء يقلن في بعض الاحيان سرًّا أو جهراً . (ما أقبح الرجال وأكرههم وأغلظ قلوبهم وأحط نفوسهم . فمنظرهم ثقيل . وذوقهم عليل . وكل ما لهم فظ بليد . واثرتهم وغطرستهم تبلغ بهم عندنا الى درجة من الاشمئزاز ما عليها من مزيد) ايتها المرأة لا تقولي هذا القول في الرجل مهما رأيت فيه مما يجعله قريباً منه ومستأهلاً له . فان الرجل الذي (يحترم) المرأة أي الذي يرعى (حرمتها السامية) التي هي اثمن ما عندها و يعف في قلبه وعينه عنها لاجدر باحترامها وحسن ميلها وصفحها مهما كان فظاً ثقيلاً غليظاً من اولئك الكلاب ذوات المنظر الظريف والذوق اللطيف واللباس الانيق والاسلوب الرقيق والشعر الصقيل الجميل الذين يحومون حول المرأة في المجتمعات والخلوات لصيدها

بشراك ظواهرهم هذه وجعلها بعد صيدها لعنةً لاهلها واضحوكةً وألعوبة لهم يتسلّون بالهزء بها والضحك منها في خلواتهم ·· أيتها المرأة لكِ ان تغتفري للرجل كل ذنب وتتحملي منه كل اساءة · اما اصطياده امرأة ضعيفة من منزلها بين اهلها واولادها وهي بلا سلاح بازاء سلاح ذلك الوحش القوي فهو ذنب لا تطهّره الا لعنة الله ونار الجحيم : هو ذنب يوجب عليكِ ان تري كل رجل لا يعجبك مهما كان فاتراً غليظاً — شخصاً محبوباً اذا كان يعفّ بل ملاكاً بالقياس على هذا الشيطان الرجيم

وبعد ان تشاور الفرسان الثلاثة التفت الفارس الاول الى مريم وقال — ضاحكاً : نحن غرباء ايتها السيدة ولا فندق هنا فهل تأذنين لنا ان ننزل ونستريح على هذا العشب

فنظرت مريم في عينيه بوقاحة كنظر رجل لا كنظر أمرأة وقالت · الارض لله لا لي فلكم ان تنزلوا حيثما تشاؤون

فترجل الفرسان الثلاثة وجلسوا على بعد اربعة امتار من مريم · وكان يظهر ان قائدهم هو الفارس الاول لانه كان اجرأهم واوقحهم · فلما جلس لم يتعذر عليه موضوع للكلام فالتفت الى رفيقيه وقال

— اسألكم حلّ لغزي · نحن الان في حضن الطبيعة الجميل · فوقنا السماء وزرقتها الصافية · وتحتنا الارض وازهارها الزاهية · وحولنا الشمس ونورها العسجدي وانفاسها الدافئة · فما هو أجمل ما حولنا ؟

فقال كل من رفيقيه قوله وهو يضحك · وبعد ان فرغا من الكلام قال الفارس الاول

— كل ما قلتموه جميل · فالازهار والوانها المختلفة الخارجة من تراب كأن في الارض صبّاغاً يصبغها · والنبات الاخضر المتحول عن تراب أسود · والهواء

البارد الذي لا نعلم من أين يهب · ونور الشمس الذي يشرح القلب · والطيور التي تتداعب هناك على الاشجار تداعب الاطفال الصغار· والراعي الذي يرعى مواشيه و ينفخ لها بالمزمار · والسماء التي فوقنا ولا نعلم من اين تبتدئ ولا أين تنتهي في هذا الكون المملوء بالاسرار — كلها جميلة كما قلتم · ولكن هناك ما هو أجمل منها · فان لا شيء منها يشبه جماله جمال الحسناء ذات السوار· كلها جامدة باردة ساكنة سكون الموت فليس لها قلبٌ رقيق يخفق ولا عين ساحرة تحدق ولا نَفَس حار · النَّفَس ؟ سبحان جو بيتر بل ديانا لهذا (النفَس) الذي خلقاه وجعلاه رسول النَّفْس الى النَّفْس من قلبين أُشعلت فيهما النار · فالحسناء بديعة بدائع الكون ومستجمع الفنون ومنتهى ما قدر عليه في خلق الكمال والجمال ذلك الخالق الجبار · وفيها خلاصة الكائنات كلها · فقوة الأسد في نظرها · وسواد الليل في شعرها · وبياض الفجر في جبينها · وحمرة الورد ولون الزهر في خدها · و برق النور في عينها · ولين الغصن في قوامها · ودهاء الثعلب في قلبها · ورقة السحاب وقوة صاعقته في لسانها · وخفة الطيور في رشاقة حركاتها · وفوق ذلك كله روح خفيفة بشوشة متسلطة على هذه النفائس تبث فيها الحركة والحياة وتديرها حيث تشاء (وَنفَس حار) يذيب كل شيء يعترض سبيلها وُينفذ ارادتها

وكانت مريم في اثناء هذا الوصف الشعري تنكتُ الارض باصبعها ولكنها كانت مصغية الى ذلك الثقيل تسمع كلامه· ونظرت الى نفسها بعد هذا الوصف فراقها ذلك الاغراق والغلو اذ لا يلذ النساء شيء مثله · ولكنها لم تجد في نفسها لنفسها اكليل ذلك البهاء والسناء الذي كلل المرأة به ذلك الفارس · فقالت في نفسها · ما أشد جنون الرجال الذين تدفعهم تصوراتهم الى انزال المرأة هذه المنزلة · فان شاباً جدي الاخلاق مستقيم السيرة والسريرة نشيطاً

في عمله كالنحلة في قفيرها يحمل على ظهره عبء عائلته ويسير في طريق الحياة في خط مستقيم دون ان يبالي بتعب او صعوبة — لهو أجمل في حياته واكمل وافضل من امرأة بيضاء وحمراء تعرض كالصور في المنازل

وكانت مريم لا تجهل ان ذلك الثقيل لا يقصد في كلامه هذا مجرد الوصف الشعري بل قصد به جرّ الحديث معها الى ما يبغي جرّه اليه · ولذلك لم يفرغ من كلامه حتى التفت اليها وقال

أما أصبتُ ايتها السيدة في قولي انكِ زينة الارض ومستجمع بدائعها ونفائسها

فرفعت مريم رأسها وقالت · كنتُ مشتغلة بالتأمل في دودة تحفر لنفسها في التراب لتغوص فيه فلم اسمع كلامك

★★★★★★★★★★★★

وبعد مرور ساعة كان هؤلاء الفرسان الثلاثة يتناولون الطعام ويتعاطون المدام مع مريم في منزلها

الفصل العاشر

﴿ متناقضان ﴾

وفي صباح اليوم التالي وصل شيشرون الاحدب الى منزل مريم ليمحو أثر تخاشنه أمس معها · فرأى من بعيد ثلاثة أفراس مربوطة بجانب المنزل · فقال في نفسه (مسكينة هذه المرأة التعيسة) ثم حاد عن الطريق وأوغل في اكمة ورأها وهو مطرق يفكر بنفس متألمة

فما كاد شيشرون يبلغ سفح الاكمة حتى رأى تحت شجرة فيها رجلاً مستلقياً على ظهره وذراعاه معقودتان تحت رأسه وكتاب ملقىً على صدره · فمشى شيشرون نحوه ليراه لان هذه أول مرة رأى فيها في مجدل رجلاً يحمل كتاباً · اما الرجل

فلما سمع بجانبه وقع اقدام ترك ما كان فيه من التأمل ورفع رأسه · فوقعت عينه على ذلك الاحدب · فعرفه الاحدب لانه رآه أمس يفرّ من امام مريم وهي في الحقل حين مروره بها · فثارت نفس شيشرون لمنظر هذا الرجل لظنه انه أساء أمس الى مريم او قصدها بسوء · فرام الانصراف عنه باحتقار ولكن نفسه الرومانية منعته من ذلك وأوجبت عليه الانتقام من ذلك الرجل

وقد علم القارئ ان ذلك الرجل كان يوسف الذي وقع له ما وقع مع مريم في اليومين الماضيين ·

فدنا منه شيشرون بانفته الرومانية وقد رفع رأسه فوق حدبته رفعاً مضحكاً · ولما صار عنده جلس وقال · قد حللتَ محلي ايها الشاب فان هذه الشجرة شجرتي وقد اعتدتُ المطالعة تحتها

فاستوى يوسف جالساً وقال وهو يتأمل في جسم شيشرون المضحك : اظنها تكفيني وتكفيك · تفضل واجلس

فلم يجاوب شيشرون وقال · أرى بجانبك كتاباً وهذا أمر مدهش منك· اذ كيف يمكن الجمع بين (الكتاب والكَعَاب) (١)

فتوردت وجنتا يوسف وأخذ كلمح البصر يضرب أخماساً باسداس · فمرّ في نفسه ان مريم أطلعت هذا الاحدب على ما وقع له معها او انه هو نفسه رآه أمس واول أمس يجول حول المنزل او ابصره في الحقل بجانبها · ولكنه تجلد في كل حال وأجاب متهكماً · من السهل الجمع بين الكتاب والكعاب اذا كان الكتاب قصة لان النساء القصص القصص

فعبس شيشرون وقال · تعني بكلامك هذا انك تعاشر هذه المرأة ولا تخشى

فعبس يوسف وقال · من أين لك ان تناقشني الحساب يا هذا في

(١) الكَعَاب من النساء التي نَهِدَ ثديها أي ظهر وأشرف

شؤوني الخصوصية · ولماذا تنظر القذى الذي في عين غيرك ولا تنظر الخشبة التي في عينك · أما انتَ الذي نادتك أمس في ذلك الحقل وراء هذه الاكمة

فاستشاط شيشرون غضباً وصاح يالك من لئيم دَنس

فانتصب يوسف بكبرياء وعظمة وقد سكت بضع ثوانٍ ثم نطق فقال ·

لست اقابل اهانتك بالاهانة ايها الروماني المهذَّب · فحسبك انك اسأت الى من لم يسئ اليك ولا الى أحد غيرك

ثم تناول يوسف كتابة وهمَّ بالانصراف

فتعلق به شيشرون اما لان غضبه سكن لدى هدوء يوسف وتأدبه واما لانه كان يري انه لم يستوفِ انتقامه بعد · فامسك بثوبه وقال · لا تذهب فانني اريد اتمام هذا الحديث معك

ولكن شيشرون لم يأتِ على هذا الكلام حتى صاح صوت من اكمة الى يمينه : ما هذا ياشيشرون · هل أصبحتَ شرساً الى هذا الحد·

فالتفت شيشرون ويوسف الى جهة الصوت فابصرا مريم واقفة تضحك وبجانبها الفارس الرومانيُ الاول الذي تقدم ذكره في الفصل السابق · وكان الفارس منبسط الاسرة باسم الثغر يهمس في اذن مريم ومريم تبتسم وتنظر في جهة ذينك الشابين الحقيرين · اما شيشرون فقد ابصر مريم والفارس في هذه الحالة ارتخت عزائمه واضطربت نفسه مع ما فيها من القوة الرومانية · وسبب ارتخاء عزائمه رؤيته ان هذه المرأة لا تستحق الحماسة التي كان يدافع عنها بها · واما يوسف فقد انخلع قلبه وغار دمه وكلل العرق جبينه وكاد يهوي الى الارض· فجذب ثوبه من يد شيشرون وقال دعني فانني لا اقيم في هذا المكان

فدنا منه حينئذٍ شيشرون وقال بلطف مخالف لشراسته فيما تقدم· ياصاحب لا تلمني فقد غضبتُ وقلما اغضب في حياتي ·هلمَّ بنا نذهب من هنا ونتحادث

بهدوء واتفاق لانني لا أرى هذه المرأة اهلاً لان يغضب رجل كريم من أجلها

فسكت يوسف ولم يجب وسار بجانب شيشرون يضرب اخماساً باسداس ويتساءل عن سبب انقلاب هذا الاحدب الغريب بعد ظهور مريم

اما مريم فمذ ابصرتهما يسيران دون ان يلتفتا اليها قهقهت واستندت الى الفارس رفيقها ثم سلكت معه طريقاً آخر وهي تهزل وتضحك وتقطف ازهار البرية وتغرسها في شعرها وصدرها

وما خطا يوسف وشيشرون بضع خطى حتى قال شيشرون · هل انت ابن هذه القرية يا صاحب · فقال يوسف كلا فاني ضيف فيها منذ اربعة ايام · فقال وما هذا الكتاب الذي في يدك · قال هذا كتابنا المقدس (التوراة) · فقال شيشرون قد اطلعت عليه وكثيراً ما لذتني المطالعة فيه · وهل قرأت فيه هذه المرأة امامك

فالتفت اليه يوسف بنزق وقال أما زلت تعتقد انني عرفت هذه المرأة قبل الآن

فقال شيشرون ولكنك كنت أمس معها في الحقل · فقال يوسف · اسمع ياصاحب · لو سألتني بلطف في بدء كلامك لعلمتَ انه لا علاقة لي بهذه المرأة ولا اريد ان يكون لي علاقة بها · فانت وشأنك معها كما تريد فان فكري منصرف الى الله الجمال لا الى جمال ملوث بالاوحال

فرفع شيشرون رأسه وقال انني اردّ اليك نفس سؤالك · هل تظن ان لي علاقة بهذه المرأة · لقد اخطأت يا صاحب

ثم شرح كل واحد منهما قصته للآخر دون ان يذكر يوسف شيئاً عن ميله الى مريم واقتفائه أثرها أول أمس · فتفاهما وزاد اتفاقهما على ما يظهر · وكانا قد بلغا الى صخرة ناتئة فوق الوادي ومشرفة على الرمانة التي تداعبت فيها بلابل

مريم يوم التقائها بيوسف • فانحدرا نحو الرمانة

الفصل الحادي عشر

﴿ الخطبة في الوادي (١) ﴾

بين يوسف وشيشرون * ثم بين شيشرون ومريم
تجيء سكرى وغضبى كلبوة

وكان الحر شديداً في ذلك النهار • والريح ساكنة • والطيور هادئة في الاشجار لجأت اليها فراراً من الحر وتركت العشب والزهر • والغنم هجرت مرعاها ولجأت الى الظل • وراعيها استلقى تحت ظل شجرة بعيدة وقد سكت مزماره

فجلس يوسف وشيشرون في ظل الرمانة وهما ساكتان الا انه كان في نفس كل واحد منهما (شيء) يتكلم • وهذا (الشيء) واحد وهو (مريم)

فلما جلس يوسف تحت الرمانة تنهّد ونظر في اغصان الرمانة لانه تذكر البلابل التي سمع هو ومريم تغريدها هناك • ومرّ في خاطره حينئذ الدمع الذي رآه يجري على وجنتيها في ذلك الحين فقابل بينه وبين ضحكها وخفتها منذ عشر دقائق فتألمت نفسه وحارت في أمر هذه المرأة التي هي لغز من الالغاز • فتنهد وقال

— أليس من دواعي الاسف والحزن العظيم ان الطبيعة والكائنات كلها تستريح في هذه القرية في هذا الوقت : وكائن واحد يتعذّب

فالتفت اليه شيشرون وقد تجاهل مراده وقال — ماذا تعني يا صاحب

(١) نشرنا في روايتنا « اورشليم الجديدة » « الخطبة على الجبل » للراهب الشيخ مخائيل وفي هذه الرواية ننشر « الخطبة في الوادي » لشيشرون الروماني • وكلتاهما على طرفي نقيض عند من يغوص على المعاني ويحسن فهم الكلام

فقال يوسف . أنني أرى الآن السماء ثابتة . والارض جامدة . وما على الارض ساكن في راحة مطلقة . فالريح هادئة . والاشجار والنباتات مستقرة تستريح من الحركة . والطيور مطمئنة فيها تتمتع بنعمة الراحة الالهية . والمواشي تحتها نعيمة البال تجترّ وتهضم غذاءها بلذة حيوانية . وكل شيء حولنا ساكن مستريح مطمئن الا تلك المرأة الشقية

فسكت شيشرون بضع ثوانٍ ولم يُجب . ثم قال وهل انت متحقق يا صاحب انها كلها ساكنة مطمئنة مستريحة (راحة مطلقة) كما قلتَ

فقال يوسف وقد أشار الى ما حوله : أما ترى

فقال شيشرون

— يا صاحب قد سرّني اني لقيتك وعرفتك . فانني كنت في حاجة الى صديق مثلك في دار غربتي هذه . ولقد اسأتُ اليك الساعة ولكن قلبك الكريم الذي خبرته في هذا الزمن القصير يصفح عن اساءتي لا سيما وانك علمتَ ان سببها كان سوء التفاهم بيننا . ولاشكّ في انك تحترمني وتصفح بعد ان عرفتَ أصل هذا السبب . يا صاحب انني أراك فتىً في نحو العشرين أو اكثر قليلاً . وانت كثير الاحلام قليل الكلام . ولم اجد في كلامك ما يدلّ على انك ذو صناعة . فهل انت مثلي

فحار يوسف في الجواب وعجب من هذا السؤال فقال . جاءت الآن نوبتي في ان اسألك ماذا تعني يا صاحب

فقال شيشرون اعني انني (مقطوع) الهيئة الاجتماعية . فهل انت (مقطوعها) مثلي

فدهش يوسف وفتح عينيه وقال . كيف انت مقطوع الهيئة الاجتماعية وأية علاقة لهذا الكلام بالسؤال الذي القيته عليك

فابتسم شيشرون ابتسامة لا يعرف معناها أحد غير الآلهة أو الشياطين وقال

ـ لا تخف يا صاحب . فلستُ جانياً فاراً من السجن او من المحكمة. ولا اخا دنيئة منفياً من وطنه . ولكني (مقطوع) من ارض وطني وانا قطعتُ نفسي بنفسي . انظر يا صاحب انني لم احدث احداً في ما احدثك به الآن غير مريم الشقية كما دعوتَها . والذي دعاني الى محادثتك هذه الكتابُ الذي رأيته في يدك وما سمعته من ملاحظاتك الآن ومنذ اول التقائي بك . انني رومائي ولدتُ في رومه مهد الشرائع وعاصمة الدنيا وامّ الامم . فعشت فيها الى سن العشرين راضياً هنيئاً . وفي الثانية والعشرين بدأتُ اضطرب ضمن معيشتها المضطربة . وفي الثلاثين شرعتُ في محاربتها . وفي الثانية والثلاثين تركتها و(انقطعتُ) عنها غير آسف عليها .

فقال يوسف حقاً يا صاحب انني لم افهم مُرادك بعد بقولك انك (مقطوع) و(انقطعت) . فهل مرادك انك هجرتَ وطنك وان كل من يهجر وطنه انقطع عنه

فقال شيشرون انني ابسط لك مرادي بعبارة اوضح . ان (المقطوع) عن قومه هو الذي انقطعت ما بين فكره (١) وافكار بني وطنه صِلات المبادئ التي كانت تجمعها من قبل . فيصبحون وهم يرون الحياة وسننها واغراضها وطرقها مخالفة للسنن والاغراض والطرق التي يراها هو . واحياناً يكون الحق في جانب ذلك الفرد والخطأ في جانبهم وذلك حين يكون الفرد نابغة من نوابغ الارض . وتارة يكون الحق في جانبهم والخطأ في جانبه وذلك حين يكون هذا الفرد من ضعفاء العقول والادعياء في الارض . فانا (مقطوع) عنهم ولكن من أي فريق أنا

قال شيشرون هذا الكلام وأطرق بانكسار كأنه علم انه تجاوز الحدود في

---

(١) لا نقول « نفسه » لان رنان يقول في كتابه في تاريخ بني اسرائيل ان الرومانيين كانوا لا يفهمون التفريق بين النفس والجسد كما اصطلح عليه المسيحيون في عصرهم

كلامه ・ ولكنه كان يرى انه يخاطب فتىً قليل الخبرة فلم يهتم كثيراً لما بدر منه ـ اما يوسف فاجاب على حسب فهمه فقال

ــ أما أنا يا صاحب ・ فلستُ (بمقطوع)ولكني (لا تابع ولا متبوع)

فالتفتَ اليه شيشرون بنزق لظنه انه يهزأ بكلامه وقال أتهزأُ بالمصائب يا صاحب ؟

فتوردت وجنتا يوسف الصفراوان وقال معاذ الله ياصاحب・انني اجدّ ولا امزح ・ انني (لا تابع ولا متبوع) ولكنني ايضاً لستُ (بمقطوع) فانا مثلك ضعيف فقير أرى رذائل قومي واغلاطهم وفسادهم ولا استطيع هدايتهم ــ فلا انا أتبعهم ولا هم يتبعونني ــ ・ ولو كنتُ في مكانك بين قومك لانقطعتُ عنهم كما انقطعتَ اذ لا صلة خالدة بينك و بينهم ・ اما انا فلا استطيع هذا الانقطاع لان بيني وبينهم صلة خالدة مصنوعة من حديد تربط نفسينا بعضها ببعض ・ فبها انا متصل و بدونها انا منقطع ・

فقال شيشرون بعجب ・ وما هذه الصلة

فمدّ يوسف يده بنزق وحدّة الى التوراةالتي كانت بجانبه على الارض ورفعها بوجه شيشرون وقال ・ هذه هي الصلة

فضحك شيشرون وقال ・ فهمتُ مرادك ・ وكلامك هذا يردّنا الى السؤال الذي القيته عليّ بشأن مريم ・ وانا ما ألقيتُ عليك سؤالي وذكرتُ لك ما ذكرت الا لارجعك اليه

فاتم يوسف كلامه قائلاً ・ نعم هذه هي الصلة الباقية بيني و بين قومي ・ في هذا الكتاب ماءُ الحياة فمن شرب منه لا يظمأُ ومن استند اليه لا يسقط ・ فهو اولاً يعلّمنا وجود (الله) قادر على كل شيءٍ منه اتينا واليه نعود ・ وثانياً يضع لنا سنن حياتنا الاجتماعية على اسس العدل والانصاف والحق ومحبة بعضنا

بعضاً وفعل الخير والرحمة والشفقة . وثالثاً ينبئنا بظهور (المسيح) فينا لاصلاح فسادنا واعادة صلاحنا وقوتنا الينا . فلو كان عندكم مثل هذا الكتاب الحق لرأيت ان الصلة بينك وبين قومك لا تنقطع بل تطلب به صلاحهم واصلاحهم وتوثيق الصلات بينك وبينهم

فابتسم شيشرون وسكت . وبعد بضع ثوان قال . ان كلامك يا صاحب ككلام رجال ديننا . فهم يعتقدون ان كتبهم وعبادتهم جو بيتير وديانا وسائر آلهتهم حقٌ كما تعتقدون ان كتبكم وعبادتكم آلهتكم حق . وليس غرضي ان احكم بين الفريقين فما هذا موضوعنا . فان موضوعنا سؤالي الذي القيته عليك (هل انت مقطوع مثلي) فانني رأيت ملاحظتك بشأن (راحة الطبيعة والكائنات) راحة مطلقة حالة كون تلك المرأة الشقية تتعذب وحدها — مما يدل على انك متألم من الهيئة الاجتماعية تألماً شديداً . ولما كنتُ متألماً منها مثلك سألتك هل انت (مقطوع) مثلي . فعلمت من جوابك الآن انك لست (بمقطوع) ولكنك (مخدوع) . ولا عتب عليك ولا لوم فانك لا تزال في سن الانخداع

والآن اجيبك على سؤالك بنفس السؤال الذي القيته عليك فيما تقدم . وهو . هل انت متحقق ان الطبيعة والكائنات التي ذكرتها هي مطمئنة مستريحة راحة مطلقة كما قلت .

لا تستغرب يا صاحب تعلقي بهذه الملاحظة التي صدرت عنك فان الجواب عنها أساس فلسفتي ومبادئي كلها . فكأنك بهذه الملاحظة نقلتني من افقي الصغير المحدود في بلادكم هذه الى افق الفلسفة المتسع المنبسط فوق الارض كلها يحيط بجهاتها الاربع لان نواميسه متسلطة على جميع ما فيها

قلتَ ان السماء ثابتة . والارض وما عليها من الكائنات هادئة ساكنة . وأهل هذه القرية كلهم مستريحون — الا مريم تتعذب وحدها . فمقتضى قولك هذا

ان السعادة هي في الراحة والهدوء والسكينة

كلا ان السماء التي تراها ثابتة امامك ليست بثابتة . فان مئات والوفا من النجوم تسبح وتضطرب في دوائر هائلة ولها دوي وصعقات وتفجرات تملأ فضاء اللانهاية . ولو ارتقيتَ اليها ووقفتَ بينها وقفةً تمكنك من الاشراف على مجموعها بنظرة واحدة لسمعتَ لها في حركاتها الهائلة الدائمة أنيناً بعيداً ورأيتَ لها عذاباً شديداً يحكيان أنين وعذاب الفرس الذي يدير رحى الآلة الطاحنة . وهذه الطبيعة التي ظننتها الآن مستريحة لهدوئها وسكونها انما هي في حركة دائمة وعذاب دائم . فالرياح تضطرب ويصرع بعضها بعضاً . والضباب والسحاب يتبدد لديها مطروداً بذل وإهانه كأنه قمامة تكنسها مكنسة خادمة . ومياه الانهر والابحر تثور وتزبد لدى صدماتها الشديدة كما يثور الحرّ للطمة من كف حر . وتربة السهول وصخور الجبال تتفتت من فعل المياه التي تجري فيها والرياح التي تهب عليها . والاشجار والنباتات تشق بطن الارض بجذورها شقاً وتنتزع من التراب مادة الغذاء انتزاعاً وتتنازع عليه فيما بينها تنازعاً شديداً . والحيوانات والطيور والحشرات في ظلها او بين اغصانها حتى الاسماك في جوف البحار والنسور في اكنانها في رؤوس الجبال تتصادم وتتلاطم ويفترس بعضها بعضاً . هذه هي الطبيعة التي تظهر لنظرك مستريحة هادئة ساكنة وهي في حركة دائمة وعناء ابدي

الحركة . هذه هي سُنَّةُ الكون العظمى وشريعته الكبرى . وانني أرى أثر الحركة في كل شيء حتى انني لا أظن ان الكون لم يُخلق الا بها (١) واذا كانت الحركة سُنَّةً عامة وشريعة مطلقة فهي لم تكن كذلك الا لانها محيط صالح لنشأة الامة والحياة وسلامة العيش فيها . فالحركة الحياة والسكون المنون

انك ترى البوذي جامداً تحت شجرة يتأمل ويحلم وهو كأنه رمة لا يتردد فيها نَفَس . واذا رأى افعى تفترس عصفوراً او ذئباً يختطف ارنباً ثارت نفسه

(١) هذا مبداء مشهور اليوم وكثير من اهل العلم يرجحونه

شفقةً ورحمة ورفع يده الى السماء لاعناً الافعى والذئب ونُغص عيشه في ذلك اليوم فلا يأكل ولا يشرب تأثراً وانفعالاً . وترى الاسرائيلي جالساً الى تلموده يرسف في قيوده وهو ساكن جامد يحمد اله ابائه وأجداده ويطالع اقوال انبيائه الذين يغرسون في نفسه مبادىء الرحمة والشفقة ويزهدونه في الدنيا . قال احد ملوكه المدعو سليمان (باطل الاباطيل وكل شيء باطل) فماذا تريد ايها الاخ ان يخرج من هذا الضعف والجمود والسكون والزهد والاستماتة . ان شرقكم ينحط الان ويموت بهذا الضعف العام الذي استولى على نفوس أهله بسبب هذه المبادىء التي تحلّ نفسه حلاً . . . لا تقطع كلامي يا صاحب ودعني أكمل . انكم تقولون ان الرحمة والشفقة وحب القريب من العواطف الالهية . والهدوء والسكينة والراحة من حاجات النفوس البشرية . نعم ان الرحمة والشفقة وحب القريب عواطف كما يقولون ولكنها ليست بالهية بل مصدرها ضعف تربية الانسان وفساد عقله وقلبه . ليس العمدة في حياة البشر جعل الارض (مستشفى عاماً) يُداوى فيه البشر ويمرّضون صيانةً للضعيف وحفظاً للخامل . فان هذا أمر تنبو عنه العقول السليمة ونتيجته إضعاف الجنس البشري . فليقع للمرضى والضعفاء والخاملين ما يقع فانهم نُخالة الكأس والنخالة لا تسوغ لشارب بل تُطرح بعيداً . وماذا يهمنا ويهمّ الارض التي نعيش عليها اذا نقص عدد سكانها سدسهم او خمسهم او ربعهم . ان البشر يبقون بشراً والارض تبقى ارضاً ولكنهم يصبحون أصح واقوى واعظم وهي تصبح موطناً قوياً لا تفسد هواءه ريح الضعفاء والمرضى ولا يسكنه الا الاقوياء . (فالقوة) هذه هي (السنّة العامّة الجديدة) التي يجب ان تحكم الارض وتُغرَس مبادئها في كل حيّ فيها . اليكم عنا ايها الضعفاء فاننا لا نبغي العيش الا مع الاقوياء . اننا نريد (انسانية جديدة) لا يتخنث فيها الرجل ولا يتأنث . لحمتها ,, القوة والنشاط '' وسداها ,, ايجاد شخصيات قادرة ذات قدر رفيع '' . واذا اقتضى الامر دوس هذه الشخصيات القادرة الجثث والهام . فلتدس ولتزحف الى الامام الى الامام . توصلاً الى الامور العظام

وتقولون ,, ان الهدوء والسكينة والراحة من حاجات النفوس البشرية'' وانا أرى انها من حاجات النفوس البشرية الضعيفة · إحفظ هذه القاعدة المطّردة وهي ,, متى رأيتَ حياً يميل الى الهدوء والسكينة والراحة بعد ميله الى ,, الحركة'' فقد بدأ بالانحطاط '' ذلك لان الميل الى ,, الراحة'' ميل الى الضعف والكسل والخمول · فالحياة والدنيا كلها حركة في حركة فمن دبّ فيه الميل الى (الوقوف) اي الراحة فقد دبّ فيه الميل الى الانتحار المعنوي والخروج عن سنّة الحياة العظمى التي هي (الحركة)

وهنا سكت شيشرون ومسح العرق عن جبينه لانه كان قد تحمّس في كلامه · اما رفيقه يوسف فكان يصغي اليه وعلى وجهه لوائح الدهشة والاستغراب · وكانت تبدو بين شفتيه ابتسامة جميلة من حين الى حين ولما سكت شيشرون قال يوسف وهو يتبسّم

— كنتُ وانا أسمع كلامك يا صاحب إخالني في عالم غير هذا العالم · وقبل ان أُباحثك فيه اسألك ما الفائدة التي يستفيدها البشر من هذه (الحركة) و(القوة) و(القدر الرفيع) و(دوس الضعيف) و(الانسانية الجديدة) و(الشريعة الجديدة) · فانني أرى في هذه المبادئ نظام الانسانية يُقلب والمبادئ التي نشأنا وشببنا عليها تُهدم ولا أرى الفائدة التي تنتج لنا من هذا الانقلاب

فاجاب شيشرون

— لا تقل الفائدة بل قل (الوحي) الذي ينزل حينئذ على الارض · ان الانسان يأخذ نوع الحيوان فيحسن تربيته ويجيد نسله لترقيته ولكنه يهمل نفسه · فالمبادئ التي بسطتها لك ترقي الفرد الانساني وتجعله ,, فوق الانسان'' (١) ان البشر خُلقوا في بدء الخليقة اقوياء أشداء ولكنهم بسبب تربيتهم المخنثة تدلوا

«١» هذه تسمية (نيتش) نفسه ومبادئ شيشرون هنا شبيهة بمبادئه · والمقصود من التقريب بينهما مع تباعد عصريهما تباعداً عظيماً هو الالمام بالمبادئ التي احتكت في الارض

بدل ان يترقوا واصبح واحدهم ضعيفاً ضئيلاً مملوءً التصورات بخيالات الرحمة والشفقة والمحبة والرفق والهدوء والسكون . هذا هو المرض الذي يجب على البشر ان يهبوا هبّةً واحدة لمداواته وإحلال (القوة) محلّ (هذا الضعف). ومتى فعلوا ذلك أصبحت الانسانية راقية وزالت عنها كل العناصر المريضة الضعيفة العاجزة التي تشوّهها وتمنع ترقيها . فهل ترى فائدة اكبر من هذه الفائدة

فضحك يوسف وتناول كتاباً كان في جيبه وفتحه ثم قرأ في اول صفحة وقع نظره عليها ما يلي

ــ الارض تزول ونواميسك الابدية لا تزول

ثم قال لشيشرون مبتسماً : احسنت يا صاحب ولكنك لم تذكرلي الطريقة التي تُربى بها هذه (الانسانية الجديدة) تلك التربية

فقال شيشرون . لا تضحك يا صاحب واعلم ان سؤالك لازم عن كلامي بعد ما ذكرته لك وهو في موضعه . نعم يجب ان تعلم الطريقة التي يجب ان تُربى بها (الانسانية الجديدة) . الطريقة هي(انماء كل قوى الانسان وترك مقاومة غرائزه) . ان (غريزة) الانسان هي (الانسان نفسه) فمقاومتها مقاومة للانسان نفسه وهدمها هدمٌ له . ان الطمع والاثرة والحب والرغبة في الاستعلاء والامتياز وحب التسلط والسيادة والقوة والميل الى التمتع بملاذ الدنيا ومسراتها ــ كل هذه غرائز في طبيعة الانسان ووجدانه متجه نحوها ومتشوق اليها . فيجب (ان تُعطى النفس مداها لتُشبع جميع قواها) هذه هي الطريقة في تربية (الانسانية الجديدة) . لا تضغطوا على (غرائزالانسان ورغائبه) فانكم (تصغرون) الانسانية بهذا الضغط وتجعلونها به ضعيفة ضئيلة خاملة كما هي الا ن . ان تعليمكم الزهد في الدنيا يُفني قوى الانسان و يجعل الدنيامسكناً لمرضى العقول والكسالى والخاملين. وتعليمكم الرحمة والشفقة وحب القريب يرفع ذلك المريض عقلاً الكسول ــ الخامل من دركة الانحطاط التي هو فيها الى درجة المساواة بالصحيح العقل النشيط القوي . وهذه المساواة هي التي تُفسد اموركم وتُضعف قوتكم وتجعل

اسافلكم اعاليكم واعاليكم اسافلكم . هذه المساواة هي الاضحوكة الغريبة والسخرية العجيبة التي تُفسد بكلام رقيق وظاهر انيق كل هيئة اجتماعية تأخذ بها . فان البشر في طبائعهم ووجدانهم فريقان . (فريق منحط) و (فريق راقٍ) فبموجب أي مبدإ مضحك يمكن المساواة بينهما . وتعليمكم ترك الطمع والاثرة ونبذ حب السيادة والاستعلاء يفني في الانسان اعظم ما فيه وهو (قوته الذاتية) ان هذه القوة يجب ان تظهر بمظهرها الكامل لا ان تقاوَم بحدود وسدود . ماذا اقول لك . تدّعون ان الطمع والاثرة شرٌّ وانا اقول ان دعواكم هذه هي الشر . ان الارض والحياة للعاملين لا للخاملين . والعامل من حقه ان يطمع في ان يعمل ما يشاء بقدر ما يشاء وينال من منافع عمله ما يشاء بصرف النظر عن غيره . ولما كانت الحياة تنازعاً على (الرزق والسيادة) فله ان يستعمل ما يشاء لانفاذ قوته والوصول الى امله في عمله . انكم تحرّمون (الغش والخداع) ولكن الغش والخداع انما هما سلاح الضعيف في هذا النزاع وبدونهما لا يقدر ان يعيش بازاء القوي . انكم تقولون عن الحب ..

فهنا لم يتمالك يوسف ان صاح ,, قف يا صاحب عند هذا الحد " — ثم شخص مبهوتاً وقد ترك الابتسام الذي كان يبدو بين شفتيه من قبل

الله اعلم بالثورة التي حدثت في نفس يوسف وهو يسمع من رفيقه الروماني هذا الكلام الغريب . فقد كان يهزأ به في بدء حديثه ويبتسم له ولكنه حين رأى ان اقواله متلاحمة آخذ بعضها برقاب بعض كأنها سلسلة متصلة وعلم ان ذلك الكلام الذي وقع في نفسه وقعاً هائلاً لم يكن هذيان شاب معتوه او احمق بل نتيجة فكر بعيد وتأمل شديد يُراد إخراجه من حيز (الترهات المعقولة) الى حيز (المبادئ المقبولة) ثارت نفسه كراهة واشمئزازاً ورأى بينه وبين رفيقه الجديد هاوية عظيمة . وقد احسّ وهو يسمع ذلك الكلام ان المبادئ التي رضعها مع اللبن وشبّ عليها تسقط في نفسه مبدأً بعد مبدإ وخُيل له ان ظلاماً كثيفاً خيّم على نفسه . فرفع يده في الهواء كأنّ ذلك الظلام ضباب يريد

طرده عنه وصاح كما صاح جوت العظيم على فراش الموت

ـــ النور النور اين النور

ولم يكن تأثر هذا الفتى الى هذا الحد نتيجة انفعاله فقط من هذه المبادئ الغريبة التي تناقض كل مبادئه وتهدمها كلها بل كان تأثره ايضاً لامر آخر. فانه عاش بين قومه الاسرائيليين وقرأ كتبهم الدينية وسمع خطب وعاظهم ورأى رذائلهم ونقائصهم (دون ان يرى فضائلهم) فقام في نفسه ان اصلاح امته وشعبه متوقف على الرجوع الى اصل الدين والتوراة واتباعهما (قولاً وفعلاً) لا قولاً دون فعل. وكان ذا نفس نقية وتربية ساذجة صحيحة واخلاق كريمة فكان لنقاء نفسه وقلبه يرى ان العمل بوصايا الدين الحقيقية أمرٌ سهلٌ فاذا فعل جميع الناس فعله واقاموا السنّة الدينية الحقيقية المسطرة في التوراة استقام لهم الاصلاح الذي كانوا ينشدونه وارتقوا ارتقاءً عظيما في الدنيا والدين فامكنهم ان ينالوا امانيهم من طرد الرومانيين من بلادهم وحكم نفوسهم بنفوسهم كما كانوا قبل دخولهم تحت نير الرق السياسي واقامة (شريعة موسى) الحقيقية التي كان الشعب قد ضلّ عنها واستسلم الى كهنة مشعوذين يسودون عليه (ليبتزوه لا ليخدموه). فكانت نفسه تحدثه ان يقوم بهذه الدعوة لاصلاح امته وإنقاذها وكان يستعد في نفسه لها. فلما سمع من رفيقه شيشرون ما سمع تزعزع وتضعضع لا لشكه فقط في مبادئه بل لشكه ايضاً في طريقة الاصلاح التي في نفسه. فانه ظهر له من كلام رفيقه ان في البشر من يرى طرقاً لاصلاح الامم غير الطريقة التي كان هو يراها وتلك الطرق هي وطريقته على طرفي نقيض. فهل تلك الطرق التي بسط له بعضها ذلك الروماني هي التي افلح بها الرومانيون اسياد قومه وسادوا بها الدنيا. هل هي الحقيقة وطريقته الوهم والخيال. أم هي الوهم والخيال وطريقته الحقيقة الابدية

ولكن نفساً ساذجة كنفس يوسف وعقلاً حديث النشأة كعقله لا يتردد فيهما شك كهذا الشك زمناً طويلاً. ذلك لان التأثير (الحديث) فيهما لا يلبث

ان يحله محل التأثير (القديم) فيعودان الى مبادئهما الاولى عودة الثوب الى طيّاته وثناياه اذا طوي بعد نشره • وحكم فتىً في سنه وسذاجته انما يكون في الغالب صادراً عن عواطفه لاعن عقله• وانتقال العواطف من تأثر الى تأثر ومن حكم الى حكم أمر مشهور • ولذلك لم تكد نفس يوسف تضطرب وتثور حتى هدأت واطمأنت لدى قليل من التأمل وعادت الى مجراها الاصلي كما يعود النهر الى مجراه اذا اعترضته اكمة في سبيله • فنوى ترك مناقشة ذلك الروماني في افكاره وآرائه وبسبب خوفه منها أبى ان يستزيده شرحاً وايضاحاً لها • فبعد ان اقام نحو دقيقتين ساكتاً يحلم ويتأمل قال له

— لقد خرجنا عن موضوعنا يا صاحب وليس ما تفضلتَ بذكره بجواب عن سؤالي • فاني لم استفتك الا في حالة هذه المرأة الشقية وكيف تعيش معذّبة مهانة مع ان جميع الكائنات والاحياء حولها في عيش ان لم يكن رغيداً هنيئاً كما قلتَ فهو على الاقل اعتيادي محتَمَل • فهل لك ما تُدهشني به في هذا الصدد كما ادهشتني في كلامك السابق

وكان شيشرون قد تحمس في اثناء كلامه السابق كما رأى القارىء وكأنّ نفسه تجرّدت من مادتها في اثناء خطبته وارتقت في مراقي الفكر تحلّق فوق الارض والبشر وهي تحمل شيئاً لا يُعلم ما هو وكأنها نسرٌ محلق في الجوّ وبين مخالبه شيءٌ لا يُعلم هل هو جيفة منتنة من جيف الارض القذرة أم هو طائر من طيور السماء الجميلة • وكأنّ جسمه المشوه تجمّل بعد شناعته لحماسة نفسه وكأنّ حدبته زالت تحت رأسه الذي رفعه بكبرياء وانفة في اثناء كلامه ورأسه الهائل ازداد ضخامة لضخامة الكلمات التي كانت تخرج من فيه وهي كأنها حجارة منجنيق تُرمى بها نفس يوسف الساذجة الضعيفة • فكان لمرآه حينئذ لدى الناقد الخبير جمال خصوصي ليس من الجمال المألوف في شيء ولكنه جمال غريب جديد وهو جمال الشناعة الهائلة اذا هبّت عليها روح قوة هائلة ووقفت في موقف النبوّة مجترئة على مدّ يدها بعصا من حديد الى قلب الهيئة الاجتماعية لتحطيم اصنام

البشر ومبادئهم بمجرّد قوتها وحدها . وكأنّ ذلك الروماني كان يعلم مبلغ كلامه هذا من الاهمية ولذلك كان يلقيه بجدٍّ ورزانة وصيغة (رسمية) كأنه رئيس دين عظيم يتلو آيات مذهبه

فاجاب شيشرون على سؤال رفيقه

— ايها الفتى (١) لا ادهشك ولا تدهشني ولم نخرج عن موضوعنا كما ظننت . تسألني عن هذه المرأة الشقية قائلاً ,, أليس من دواعي الاسف والحزن العظيم ان الطبيعة وجميع كائناتها هادئة تستريح واهل هذه القرية مستريحون مطمئنون جميعاً — وهذه المرأة وحدها تتعذب '' فاجيبك . من ادراك يا صاحب انه ليس في أهل هذه القرية من يتعذّب عذاباً أشد من عذاب مريم الشقية ... ثم دعنا من هذا ولنعد الى المبادئ التي بسطتها لك لتطبيقها على سؤالك . وهو ما أردتُ الاستطراد اليه بعد هذه المقدمات كلها . فلا تقل انني خرجت عن موضوعنا

كلا يا صاحب ليس ما ذكرتَ من دواعي الحزن والاسف . تقول ان هذه المرأة تتعذب وتشقى في حياتها هذه فدعها تتعذب وتشقى . واذا قُدر لها الهلاك والفناء فلتهلك ولتفنَ . تذكّرْ ما قلته لك آنفاً ,, اليكم عنا ايها المرضى والضعفاء والساقطون واذهبوا من طريقنا والا دسناكم فاننا نريد المعيشة مع الاقوياء لا مع المرضى والضعفاء '' اننا نريد اقوياء تسري قوتهم الينا فتزيدنا قوة لا ضعفاء يعدينا ضعفهم ويزيدنا ضعفاً . فالرحمة والحزن والاسف انما هي عواطف عواطف عواطف ولا نريد ان نحيي في الارض بحسب شريعة العواطف المنحطة .

---

(١) ورد في الصفحة ٥٨ السطر ٨ ان عمر شيشرون ٣٢ سنة وهو خطأ مطبعي لا بدّ من اصلاحه قبل تمام الرواية والصواب ٣٨ سنة

لا تظن يا صاحب ان قولي هذا يدل على ان قلبي خالٍ من الشفقة على هذه المرأة • فانني اراقبها منذ حين وابذل جهدي لاعادتها الى الطريق المستقيم • ولكن المبدأ شيءٌ والعواطف شيءٌ • ومبداي يوجب عليَّ ان لا ابالي بها وان فنيت وهلكت وان كان قلبي يرأف بها ويود مساعدتها

بروز مريم

على ان شيشرون لم ينتهِ الى هذا الكلام حتى انتصب وراء الرمانة شبح وورد من جهة الشبح هذا الكلام — ما أكرم اخلاقك ايها الظريف

فالتفت شيشرون ويوسف فابصرا مريم واقفة في مكانها وهي جامدة جمود الصنم • وكان وجهها متقلص الاعضاء وعيناها متنفختان حمراوان ولون وجهها اصفر كأنّ جميع دمائها غارت الى قلبها ويدها ترتجف مضغوطة على صدرها كأنها تحاول تسكين خفقان قلبها • فدهش الرفيقان وبهتا • فابتسمت مريم ابتسامة التهكم والازدراء ومشت نحوهما على خط مستقيم جامدة متوترة الاعصاب كأنها صنم يمشي • ولما صارت عندهما نظرت في عيني شيشرون وجهاً لوجه وقالت

— نعم ما أكرم اخلاقك • اني اشكرك لشفقتك عليَّ شفقةً مستثناة

وكان صوتها يرتجف للغضب الذي كانت تسرُّه ويلوح في عينيها ووجهها • فادرك شيشرون ان غضبها ناشيء عن كلامه الجارح لها فقال :

— تفضلي واجلسي ايتها السيدة مريم • انك لا تجهلين انني حر الفكر ولذلك اقول لكِ ان ما كنتُ اقوله الآن ليس من أجل شخصك لانك تعلمين انني احترمك بل هو من أجل المبدإ الذي كنتُ اشرحه لرفيقي • ولكن متى كان مجيئكِ الى هنا ومن أي طريق كان

فضحكت مريم بازدراءٍ وهدوءٍ وقالت

— يُدهشك ان تراني قريبة منك اسمع كلامك وانت تبسط فلسفتك

السامية التي تقدم لك بسطها · فانا اشكر لك ما استفدته منها · واول ما استفدته هو انك تشفق عليَّ ولا تتكلم عن شخصي بل عن مبدإك · بارك الله فيك وفي مبادئك ايها الفاضل الروماني · ولكن هل تظن ان مبادئك هذه هي ارفع كثيراً من مبادئي · اسمع لاقص عليك — فقال شيشرون : تفضلي واجلسي اولاً

فعضت مريم شفتيها غيظاً وحنقاً كأنَّ افعى تلسع احشاءها وزاد انتفاخ عينيها واحمرارهما ثم قالت — ولِمَ جلوسي ? ألكي يعديك ضعفي ويسري اليك انحطاطي فتضطر الى زيادة الشفقة عليَّ ... لا لا دعني واقفة بعيدة عنك فانني صغيرة حقيرة بالنسبة اليك ·

قالت مريم هذا الكلام ثم رشقت شيشرون بسهم من عينيها مسموم بسمّ الاحتقار والتهكم وظهر من كلامها ان صبرها كاد يفرغ وان الزوبعة التي كانت مقيّدة في داخلها آخذة بالانطلاق والثوران · فخفض شيشرون نظره وقال لرفيقه همساً وهو ينكت الارض باصبعه (لعلها شربت من الخمر فوق ما تقدر)

فاستشاطت مريم غضباً لانها سمعت كلامه وصاحت

— ماذا تقول ? تقول انني سكرى ايها الرجل · الا ترى داعياً غير الخمر يدعو امرأة الى ان تغضب وتثور بعد ان تسمع وترى ما سمعته وما رأته منك ومن رفيقك هذا أتتعرضان لي في اقدس الامور لديّ ثم تعجبان من غضبي ? ما معنى انني اناديك ورفيقك هناك وراء الاكمة فتفران مني فراركما من الذئاب وتهينانني هذه الاهانة ? ما معنى انك تغتابني الآن وتشتمني ? ...

وهمّت مريم ان تتم حديثها الا ان شيشرون نهض اليها ليسكّن غضبها لانه كان قد بلغ أشده حتى كاد ينشق صدرها من الصراخ · وكان صوتها يدوي في ذلك الوادي دوياً تجفل له طيورها · فلما رأت مريم ان شيشرون نهض تراجعت خطوة ثم صاحت

— لا تدنُ مني ودعني اكمل حديثي · فقد تركتك تكمل حديثك مع رفيقك وانا اسمعك منذ ابتدائه لانني كنتُ مختبئة وراء هذه الشجرة لرغبتي في ان اسمع ما تقولانه بعد ان اهتماني امام ذلك الروماني تلك الاهانة· فاسمع الان يا صاحب· انني اوافق على كل مبادئك التي بسطتها لرفيقك ,,الحركة والنشاط· القوة والارادة · حب السيادة والاستعلاء· دوس المرضي والضعفاء · التمتع بملاذ الحياة · ترك محاربة الغرائز · اطلاق عنان الطمع والاثرة · ترك الرفق والرحمة والشفقة وحب القريب لانها عواطف منحطة ‚‚ الخ الخ· نعم انني اوافقك عليها كلها · ويا ايها المعلم العظيم انظر امامك فانني تلميذتك

قالت مريم هذا القول بلهجة هائلة وقد طوت ذراعيها على صدرها وانتصبت امام شيشرون انتصاب الف الهجاء ونظرت في عينيه نظر الرجال لا نظر النساء·

اما شيشرون ويوسف فشخصا في جهة مريم واقاما نصف دقيقة شاخصين ساكتين مدهوشين ومريم ساكتة شاخصة في جهتهما ايضاً · فكانت تلك الثواني التي سكت فيها هؤلاء الثلاثة وكل فريق منهما يتأمل في تأثير كلامه في الفريق الآخر وينتظر جوابه — من اعظم الثواني التي مرّت في الحياة على الارض · ذلك لان مبدأين عظيمين اصطدما في اثنائها على شفتي مريم وشفتي شيشرون

وكانت مريم اول من ابتدأ الكلام بعد ذلك فقالت

— مالك لا تجاوب يا صاحب · قلتُ لك انني تلميذتك وربيبة مبادئك أفلا تقبل تلمذتي · واعلم ان عندي كل ما عندك · تريد حركة ونشاطاً وإقداماً وبعدم مبالاة في الارض فانا ابوها وامها · وأي نفس كنفسي نشيطة قوية تدوس باخمصيها الارض والسماء ولا يهمّها شيء · هل في مبادئك وفلسفتك مثال للقوة والإقدام اعظم من هذا المثال · تراجعي القهقرى وانكصي على اعقابك يا همم الرجال لدى همة امرأة مثلي · ماذا تقول يا صاحب أأنت راضٍ

عن هذه القوة والحركة والهمة . ثم هل تريد (طمعاً واثرة ومسرات وسيادة واستعلاءً واطلاق العنان للغرائز وترك محبة القريب) الا فاعلم اني سلطانة الطمع جسداً ونفساً. هاتوا لي اموال الدنيا كلها ومسراتها كلها لاجمعها تحت قدميَّ وادوسها. اما الاستعلاء والسيادة فأي انسان له من السيادة ما لامرأة جميلة ؟ اما ترك محبة القريب والرفق والشفقة فاؤكد لك انني شُفيت من دائها منذ زمان . انني ارى البشر خنازير قذرة همها التمرغ في الحمأة القذرة ولا تستحق عندي الا الاحتقار والازدراء . ولكلبٌ أليف او هرة اليفة عندي خير من مائة رجل. هل تريد يا صاحب اكثر من هذا في باب ترك محبة القريب والشفقة . ثم هل تريد اطلاق العنان (للغرائز) قه قه قه ... انظر اليَّ . آه ليت رفيقك لم يقطع كلامك حين ذكرتَ (الحب) وهممتَ ان تبسط رأيك فيه . وماذا عساك تقول فيه اكثر مما اقول . فاعترف الآن اننا في هذه المبادئ سيان واننا فرسا رهان . انني تلميذتك وانت معلمي . ولكن الفرق الذي بيني وبينك هو انك انت تقول ولا تفعل حسب قولك وانا اقول وافعل حسب قولي . هل تشفق عليَّ بعد هذا وتحسبني من الضعفاء الذين تريد حذفهم من الوجود ؟ ام تعدّني في جملة الاقوياء وطليعة (الانسانية الجديدة) التي تريد انشاءها

وهنا تركت مريم الكلام لتستريح لان الغضب والحدة اتعباها . وكان شيشرون في اثناء كلامها قد أطرق يفكر ويصغي وهو ينكت الارض باصبعه بينما كان يوسف يتنقل بنظره من مريم الى شيشرون ومن شيشرون الى مريم وهو مشرق الاسرة منتبه الى كل كلمة من كلامها ومسرور بانها تصدم مبادئ شيشرون التي بسطها لديه فيما تقدم تلك الصدمة الهائلة

ولما رآها تستخرج تلك النتيجة من مبادئ شيشرون وتُظهر له ان (ما هي فيه) نتيجة لازمة عن تلك المبادئ دُهش دهشة الابتهاج وقال في نفسه:

(حقاً لقد اصابت · كيف لم يمرّ هذا في بالي قبلها)

اما شيشرون فرفع رأسه والانزعاج بادٍ في وجهه وقال

ــ ايتها السيدة مريم · لماذا تتعلقين بمباحثة صغيرة دارت بيني وبين رفيقي وتغضبين من أجلها هذا الغضب · انما كان غرضي في هذه المباحثة بسط مبادئي وقد اطلعتك غير مرة على شيء منها · ولم يرد اسم حضرتك في هذه المباحثة الا تمهيداً لها · فلم اتعمد قط اهانتك فلماذا تهينيني وانتِ تعرفين ودادي لكِ

فقالت مريم ــ فاسمع اذاً يا صاحب · تقول انك لم تتخذ اسمي الا وسيلة لاظهار مبادئك وانا ايضاً لم اتخذ اهانتك لي الا وسيلة لاظهار ما في نفسي · فلا تظن انني غضبتُ هذا الغضب تأثراً باهانتك لي كلا (وضحكتْ) فان رأيك وآراء جميع الناس لا تهمني · أما قلتُ لك انني اعدّهم خنازير قذرة · فمن يعتدّ برأي الخنازير ؟ وانما الذي أغضبني في كلامك واضحكني معاً شنك غارة شعواء على امثالي من (الضعفاء والمساكين والساقطين) كما تدعوهم وتجريدهم من (التعزية الكبرى والعذر الاعظم) الذي لهم في هذه الدنيا · فان كلامك يوهم ان هؤلاء الضعفاء والمساكين والساقطين تساقطوا لضعفهم وانحطاطهم فقط ولذلك توجب نبذهم بل دوسهم لكي لا يبقى في الهيئة الاجتماعية الا الاقوياء الاشداء ترقية لها · فيا صاحبي انك تتحكم في البشر كأنك خالقهم · انني امرأة ساقطة كما تقول : ولمجرد حكمك باني ساقطة تقضي باهلاكي وافنائي من الوجود دون ان تبحث هل انا اسقطتُ نفسي ام غيري اسقطني · انك ترى على شاطئ النهر حمامة جميلة بيضاء تستحم في مياهه فتغدرها افعى وتنقض عليها وتفترسها فتقول: الخطأ في جانب الحمامة لانها افترست وهي ضعيفة يجب ان تهلك وتفنى · اما الافعى فهي قوية فيجب ان تعيش وتلد افاعي اخرى لتفترس حمامات أخرى · هذا ما تسميه (ترقية) يا صاحب · وأيّ عقل سليم وقلب ذكي يسلّم معك

بتجريد الحمامة (المفترسة) من (تعزيتها الكبرى وعذرها الاعظم) بينما يتقطع لحمها ويتحطم عظمها تحت أنياب الافعى . اما (تعزيتها) الكبرى فهي اعتقادها بان الافعى غدارة خائنة قاتلة تستحق لعنة الله والناس وان جميع الناس يعتقدونها كذلك . وكلما ازدادت الافعى سمناً وانتفخت شحماً ولحماً يصبح جوفها المملوء بجثث فرائسها لاعناً ذلك الشحم واللحم الذي اكتُسب بالغدر والخيانة والقتل. هذه تعزيتها . اما انت فتقول بحسب (مبادئك وفلسفتك الراقية) ان الحمامة مستأهلة نصيبها من الغدر والقتل لانها ضعيفة . فاضحكي يا افاعي الارض من هذه الفلسفة الجديدة وابكي لها يا حمام . هبك يا صاحب خالق الكون أنسيتَ ان خليقتك خُلقت طبقات طبقات بعضها اضعف من بعض . وما لي اتكلم عن الحيوان فانني بذلك اقصّر حجتي لان غدر الحيوان وقتله امران مألوفان وانت تعلم انني ما قصدت بكلامي الا التمثيل والقياس على الانسان . فالبشر يُخلقون اقوياء وضعفاء وليس فيهم ضعيف الا وترى اضعف منه ولا قوي الا وترى أقوى منه . — افاعي وحمام ونعاج وذئاب — فما ذنب النعجة اذا لم تستطع مقاومة الذئب ؟ وكيف تطلب مقاومتها له وهي خُلقت اضعف منه . اذا كان هنا ذنب فالذنب هائل و هو واقع على خالقها لا عليها لانه خلقها اضعف من الذئب . هذا هو (العذر الاعظم) للضعيف يا صاحب وانت تريد تجريده من هذا العذر وجعل عذره هذا ذنباً له . ثمَ يا صاحب ما تعني (بالقوة والضعف) ؟ ان القوة والضعف في الحيوان قوة عضلية وضعف عضلي اعني قوة بدنية وضعفاً بدنياً (لا تستغرب معرفتي هذه الامور فلدينا نحن بني اسرائيل علماء كما لديكم علماء وقد سمعت كثيرين من علمائنا يردّون على علمائكم ويقبحون مدنيتكم) فالحيوان قوي او ضعيف بحسب نوعه وتركيب جسمه وقوة عضلاته . اما الانسان فالقوة البدنية احدى قواه لا قوته

كلها . وقوته الكبرى هي قوة عقله . بهذه القوة يتحكم في الارض وكائناتها ويُخضع جميع قواتها . الا تراه قد استأسر بها الفرَس والثور والرياح وهي أقوى منه. أما سمعت ان اسكندر المكدوني غلب الفرس وجيشه اقل عدداً من جيوشهم . أما قهرَنا واستأسرَنا قائدكم بومبيوس بجيش قليل وعددنا نحن بني اسرائيل اضعافه . ففي المجتمع البشري قوة فوق القوة البدنية وهي قوة العقل . فاسمع الان . ما قولك في رجل بليد جاهل لا يعرف من الدنيا شيئاً غير جمع المال بالطرق المحللة والمحرمة وهمه في غش الناس للربح منهم جسمه كجسم الثور غلاظة وضخامة وعقله كعقل العصفور . ورجل آخر ضعيف الجسم ولكنه قوي العقل صحيح الاخلاق يخترع لقومه آلات حربية يردون بها اعداءهم عن الاسوار ومطاحن لطحن حبوبهم ومناسج لنسج انسجتهم ومحاريث لحراثة أرضهم . ايهما في شرعك هو القوي الذي يجب ان يعيش في الدنيا لانه انفع لها وايهما الضعيف الذي يجب ان يتلاشى في شرعك . هل عندك شك في ان الثاني هو القوي الحقيقي لان القوة الحقيقية الكبرى هي للعقل لا للبدن كما تقدم . ولكن انظر ماذا يحدث في الدنيا يا صاحب . فقد خبرت منها ما لم تخبر . يحدث ان الاول تكون افكاره متجهة الى جهة واحدة وهي (التغلب على غيره بكل الطرق) فعنده الغش والاحتيال والسرقة وتعمد ضرر الغير وخرق حرمة كل نظام وشريعة بطرق يعرفها ويعرف انها لا توقعه تحت طائلة الشريعة والاستئثار بكل شيء واستخفاف كل شيء في الارض والسماء اذ لا قيمة لشيء عنده غير المال — كل هذه تبلغ لديه أشدّها وتوجّه جميع قوى نفسه الى نقطة واحدة تنحصر كلها فيه وهي (ربح المال والوجاهة) . وهو في هذا السبيل يجود بكل رخيص وغالٍ ويسلك هذا المسلك بهمة مشحوذة كهمة ذئب يطلب الفرائس في كل مكان . ويحدث ان الثاني تكون افكاره منصرفة الي وجهة اخرى . فان العاقل ذو ميل الى الاستزادة من العقل كما ان صاحب المال ذو ميل الى

الاستزادة من المال · فعقله متجه على الدوام الى طلب صفات العقل وهي اولاً نصبه امام عينيه غرضاً شريفاً يسعى اليه في ما يسعى اليه من منافعه الذاتية· والجد في نفعه الذاتي ولكن (ضمن دائرة الشريعة) ·واحترام ملك غيره وعرضه وشرفه ليحترم غيره ملكه وعرضه وشرفه · وترك العدوان والغش والاحتيال والكذب والسرقة لان عقله ينهاه عنها وطبيعته لا تطاوعه عليها بل تنفره منها لانها لم تربَّ في ممارستها والتوجه اليها — فالآن اذا التقى هذان الرجلان في عمل ايهما تظنه يغلب رفيقه فيه ؟ ايهما يكون فيه الضعيف وايهما يكون القوي · ان الرجل الثاني يحارب في ذلك العمل حرب ,, رجل مقيّد بقيود ضمن حدود ‘‘ وهي الحدود التي يرسمها له العقل واعتاد ان يعيش معه ضمنها · واما الرجل الاول فيحارب حرب رجل ,, مطلق من كل قيود وحدود ‘‘ فبالكذب والاحتيال والغش والسرقة والنهب والسلب يبلغ مناه ويتغلب على رفيقه المأسور ضمن سور مبادئه · وهكذا تصبح الارض ولا حق فيها الا (للقوة) اذ لا حق · وتنمو فيها وتسود الغلظة والقسوة والغش والعدوان والسرقة وجميع مظاهر القوة بينما تمحى منها مظاهر العقل والحق تدريجاً — كما في ميدان تقتتل فيه وتتنازع حيوانات مدنية لا فرق بينها وبين الحيوانات الوحشية الا في ان تلك تمشي على ساقين وهذه على اربع

فهل الانسانية الجديدة التي تريدها يا صاحب هي على شاكلة هذه الوحوش البشرية التي لا ,, قيود لها ولا حدود ‘‘ ·انا معك في هذا لاني تلميذتك · ألا تراني اعيش بلا قيد ولا حد أمرح في الدنيا كأنها فضاء اطير فيه من افق الى افق ولا حدود فيها توقفني عند شيء أو تمنعني من ان اضع يدي فيها على شيء · فلتحيَ الحرية يا صاحب ولتحيَ مبادئك وفلسفتك · انك تبرئ بها القتلة وتذنب القتلى · تعطي الحق للظالم وتلوم المظلوم · توافق على فعل السارق وتستهزئ بالمسروق · وكأنك تقول لهم: لا تُنصَفون الا اذا كنتم تَقتلون وتَظلمون وتسرقون · فالضعيف او الشهيد الذي يقع في جهاد الحياة هو (المذنب الجاني) فيجب حذفه من الوجود· فكونوا كلكم قتلة وظلمة وسارقين فلا تُحذفون····

كانت مريم تلقي هذا الكلام كصخر حطه السيل من علٍ وهي قائمة باوداج منتفخة وعينين ثائرتين يلوح فيهما الغضب ويختفي طبقاً لموضوع كلامها · وكان شيشرون جالساً امامها على العشب وعيناه شاخصتان في جهتها · اما يوسف فانه كان قد تحمس لكلام مريم تحمساً شديداً فقام واقفاً وخطا خطوة نحوها كأنه يود ان لا يفوته كلمة منه · وكان من حين الى حين ينتقل بنظره من مريم الى يوسف ومن يوسف الى مريم معجباً بحماسة مريم ومعاني كلامها ومراقباً وقع ذلك الكلام لدى رفيقه شيشرون · وقد رفع رأسه فخاراً بان مبادئه صدمت على شفتي مريم تلك الصدمة مبادئ شيشرون التي صدمته وأعيته فدهش وسرّ معاً · فانه دهش لانه سمع من فم تلك المرأة ذلك الكلام السامي وتلك الحجة القوية · وسرّ لانه رأى ان الظلام الذي احاط بنفسه بعد سماعه مبادئ رفيقه قد انقشع عنها وحلّ النور محله · ولكن دهشته هذه وسروره هذا أفسحا مجالاً في نفسه لعاطفة ثالثة أُخرى · فان القارئ رأى فيما تقدّم ان يوسف مال الى مريم اول ما لقيها تحت الرمانة · فلما سمع منها هنا هذا الكلام ورأى ارتفاع نفسها الى مبادئ الفكر والخير ازداد ميلاً اليها وتعلقاً بها · فكان وهو واقف امامها خافق القلب تائه الفكر مدهوشاً حائراً يشبه صبياً مدهوشاً رأى وهو واقف امام مزبلة ملاكاً يخرج من المزبلة بين الاقذار ويرتفع في جو النقاء والسناء نقياً طاهراً

فأخذ يقول في نفسه وهو يمر يده على جبينه لمسح العرق الذي كان يتصبب منه لثورة نفسه واضطراب باطنه : قالوا ان نوابغ الارض يكونون الهاً عظيماً او شيطاناً رجيماً · على اني أرى هذه المرأة الغريبة الاخلاق قد جمعت الامرين معاً

ولما سكتت مريم لتمسح العرق عن وجهها بينما كان يوسف يفكر ويحلم مدهوشاً كما تقدم تململ شيشرون في مكانه ثم التفت الى مريم وقال :



﴿ مريم المجدلية تتأمل وتحلم ﴾

رسم الرسام المشهور (ناتيه) وهو معروض في متحف اللوفر في باريز

ولم يلذ لي شيء في حياتي قط كرؤيتي اياك. يوماً جالسةً بجانب الاكمة القريبة من منزلك و يمناك على كتاب مفتوح على ركبتك و يسراك تسند رأسك وعيناك تتيهان في الفضاء تحلمان وتفكران كأنهما تبحثان في اعالي الجو عن شيء مجهول فراراً من شيء مملول «الصفحة ٧٩ السطر ٧»

— هل فرغتِ من كلامك ايتها السيدة . انك اخطأتِ في ظنك انني اقول ما قلتِ . ومعاذ الله ان يكون غرضي ما ذكرتِ في بدء كلامك عن (تجريد الحمامة المفترسة من تعزيتها الكبرى وعذرها الاعظم) . كلا وانما غرضي ان تحتاط الحمامة لنفسها لئلا تُفترس ... أفهمتِ الآن ايتها السيدة مريم . ليس عمدة كلامي ان يدوس القوي الضعيف واعلمي ايتها السيدة انه اذا وردت هذه العبارة بمعناها ومبناها في اثناء كلامي فما هي الا تهديد نافع نقول به لا من أجل مصلحة القوي بل من أجل مصلحة الضعيف ليتشدد و يتقوى فلا يعتمد الا على نفسه في دفع الاذى عنه . فكأننا نقول له : كن على حذر واشحذ عزيمتك ونبه نشاطك والا فانسحاقك ودوسك أمر محتم . هل تأذنين

لي ن اتكلم بحرية كما تكلمتِ . لقد سرّني اشتغالك بكلامي بجدٍ ولا تظني انه يسوءني منك شيء . وهذا الرفيق الذي خبرته في يوم واحد ذو قلب كريم وعقل سليم وهو جدير بثقتك فلا يسوءنك كلامي امامه . فاسمعي ما كنتُ اريد قوله لك منذ زمان وأغتنم الفرصة لقوله لك الآن اذ لا اجد فرصة أفضل من هذه

انتِ ايتها السيدة مريم امرأة جميلة انيقة . جسمك صحيح قوي . ونفسك جميلة لطيفة لانني أرى في عينيك شعاع جمالها ولطفها ولا عبرة بحدتهما وشراستهما احياناً . ولم يلذ لي شيء في حياتي قط كرؤيتي اياكِ يوماً جالسة بجانب الأكمة القريبة من منزلك ويمناك على كتاب مفتوح على ركبتك ويسراك تسند رأسك وعيناكِ تتيهان في الفضاء تحلمان وتفكران كأنهما تبحثان في اعالي الجو عن شيء مجهول فراراً من شيء مملول . اي نعم يا مريم ان حلمك وتفكيرك هكذا يجعلني أحلم وافكر ايضاً . فانني اتصورك حين كنتِ في السادسة عشرة من عمرك فتاة ساذجة القلب حيية اذا رشقك رجل بنظرة توردت وجنتاك خجلاً وخفق قلبك وجلاً . انك لم تقصي عليَّ الا طرفاً من تاريخ حياتك ولكنني الآن احلم واتصوّر كما قلتُ لك فدعيني اكمل حلمي وتصوري . انني اراك في صباك كما قلتُ فتاة حيية طاهرة القلب تخرجين مع امك العجوز واخواتك الى الحقل لمساعدتهنّ في أعمالهنّ . وكانت امك أشد عناية بك منها بسائر اخواتك لانها كانت ترى فيك شيئاً ممتازاً عنهن وهي بشاشتك وعذوبة حديثك وسلامة قلبك وشدة اندفاع عواطفك حتى انه كان كل ما في قلبك على لسانك وكله كان جميلاً طاهراً . فكانت تقول (ان مريم وردة البيت) فاذا دخلته وكان مظلماً استنار ببشاشتها وورد خدها . ولذلك كانت تأتيكِ وانتِ راقدة بجانب اخواتك في الصباح فتقبّلك اولاً ثم تخرج من بيتكم الصغير الى ارض امامه مغروسة ببعض الازهار فتقطف وردة ثم تعود وتغرسها في شعرك وانتِ نائمة

وتقول ـــ (انظروا · ورد على ورد) فكنتِ اول انتباهك من النوم تستنشقين ريحين ريح الورد في شعرك وانفاس امك الحنون التي كانت تستقبلك · ثم توفيت امك وانفرط عقد منزلك اذ تزوجت اخواتك وتزوجتِ انتِ ايضاً · ولكن كان نصيبك هائلاً ···· فاصبحتِ وحيدة فريدة في الدنيا ترين الناس يقومون ويقعدون ويروحون الى اعمالهم ويجيئون وانتِ منفردة ساكنة ليس لك احد تعتمدين عليه وتستندين اليه · فماذا تفعلين ؟ وكيف تعيشين ؟ هنا وصلتُ الى (الحمامة المفترَسة) التي استشهدتِ بها في كلامك · فماذا كان ينبغي للحمامة ان تفعله لئلا (تُفترَس) ؟ لقد كان في وجهها طريقان · الاولى (ان تكون قوية) فتتسلّط على (عقلها وقلبها) وتبادر بنشاط النحلة ودأب النملة الى كسب رزقها بيديها للاستغناء عن غيرها اذا لم تجد كفوءاً لها يصونها ويغنيها · ولكسرةُ خبز توكل في هذه الحالة من الاستقلال وعزة النفس وشرف الاسم وطيب الاحدوثة بين الناس خيرٌ من جميع ثروات الدنيا وثرغها اذا كانت (أي هذه الثروات) غير مقرونة بها · والطريق الثانية الاستسلام الى العواطف والاوهام ووهن العزيمة ·· على ان تلك الحمامة لم تقدر على حسن الاختيار بين هذين الطريقين لانها لم تُتهيأ لهذا الاختيار ولم تُعدّ له وهذه عقدة المسألة · هنا تظهر باجلى بيان مبادئي التي سمعتِها وانت متوارية وراء الشجرة وغضبتِ هذا الغضب من أجلها · فمبادئي توجب على الحمامة ان تختار الطريق الاولى اعني ان تكون (قوية) وتحذر وتنتبه نشاطها وتقوي ارادتها وتختط خطة تسير عليها دون ان تترك للصدفة سبيلاً للعبث بها · (القوة والارادة والدربة) هذا ما كان ينقص الحمامة · فما كل حمامة تفترسها الافعى مع قوتها وغدرها وانما تفترس الافعى الحمامة التي لا تحتاط لنفسها ولا تحسن الدفاع عنها

فماذا تقول الحمامة يا مريم اذا قلتُ لها هذا القول : ـــ انك أجمل الطيور

الاليفة فلا تتركي الافاعي تدنسك وتسطو عليك .. لقدخلق الله لكِ جنحين تطيرين بهما الى حيث لاتصل الافاعي اليكِ ...واذا احتطتِ لنفسك واعملتِ فكرتك ونشاطك ودربتك واستعملتِ ارادتك فليس لجارح او كاسر في اعالي الجو قوة على الوصول اليكِ . لانك مع ضعفك وشدة ذلك الكاسر قد أُعطيتِ قوةً على التخلص منه على شرط ان تشحذي قوتك وارادتك وتنبهيهما فيك على الدوام . ولكن اذا نمتِ عنهما وتركتهما ينامان واستسلمتِ الى الضعف والوهن والصدفة والاتفاق فعدم وجودك خير من وجودك في هذا الزحام الهائل في الحياة لان في عدم وجودك راحة لك وفي وجودك ضعيفة بين الجوارح والكواسر ألم دائم وعذاب ابدي . هذا ما كنتُ اقوله يامريم واغضبك ذلك الغضب . هذا ما كنتُ اقوله في حمامة السماء واقوله الآن لحمامة الارض ايضاً ... أمن حقك ان تثوري عليّ تلك الثورة بعد هذا ؟ الا ترينني في كلامي نصير الضعفاء لا نصير الاقوياء . الا تعتقدين ان مبادئي هذه هي الوحي الجديد الذي يحتاج اليه شرقكم الذي أفنته تلك المبادئ القديمة واضعفت فيه كل حماسة للحياة الراقية واصابت روحه بالشلل . لقد كنتُ في هذا صديقك لاعدوك يامريم . فاحكمي بعد ان سمعتِ

قال شيشرون هذا الكلام ثم سكت وشخص في جهة مريم ليرى فعل كلامه فيها . وكانت لوائح الالم تلوح في وجه مريم من حين الى حين في اثناء كلامه فتارة يفور دمها الى قلبها فتبرد اطرافها ويصفر وجهها وطوراً يثور دمها ويفور فيصطبغ وجهها بلون قرمزي ويتوارد الدم الى دماغها تواردا يكاد يخنقها . ذلك ان شيشرون اثار فيها بكلامه هذا عاطفتين هائلتين . الاولى عاطفة الكبرياء الذاتية والكبرياء ام الفضائل كما انها امُّ الرذائل . فانه بثنائه عليها ووصفه جمال جسمها ونفسها وطهارة حياتها السابقة حرك ما كان كامناً

فيها من الاشجان وردّ اليها (نفسها الاولى) التي كانت لها قبل دخولها في وادي الشقاء ... ولكن هذه العاطفة كانت ضعيفة بالنسبة الى العاطفة الثانية التي اثارها فيها كلام شيشرون البارع . فانه لما أخذ يصف تربيتها في صباها ويذكّرها امها وحنوّها عليها وحبها لها وتعلقها بها وتفانيها من أجلها ثار كل ما كان مكنوناً في نفس هذه المرأة المسكينة من العواطف الطيبة والتذكارات العيلية الجميلة كأنّ زوبعة هائلة هبّت في داخلها فنسفته نسفاً . ولذلك لم يفرغ شيشرون من كلامه ويلقي عليها قوله الاخير „ فاحكمي بعد ان سمعتِ" حتى ارتخت اعصابها بعد توترها وانحنت قامتها بعد انتصابها وبقيت شاخصة في جهة شيشرون ساكتة جامدة جمود الصنم . وبعد انقضاء عشرين ثانية عليها وهي في هذه الحالة ارتعشت ارتعاشاً شديداً ورفعت بغتة يديها الى عينيها ثم استخرطت في البكاء كأنه اصابها ألم فجائي

فدهش شيشرون ويوسف لما اصابها ونظر احدهما الى الآخر وقد تحركا كلاهما نحوها . الا ان مريم لم تمهلهما ان يصلا اليها فانتفضت وصاحت وسقطت الى الارض مغمى عليها اذ اصابتها نوبتها العصبية

وبينما كان يوسف وشيشرون يُعنيان بمريم وينبهان حواسها وهما في حزن وأسف لما اصابها كان راعي الغنم في اعلى شرفة الوادي ينادي قائلاً

— يا قديس يوسف . سيعلق بك شياطينها . الحمد لله ان غنمي بعيدة عنها

ثم ان الراعي تناول مزماره ونفخ فيه في وسط ذلك الهدوء انغاماً مطربة . فكان مثالاً لفراغ البال والهناء في الخلاء بينما كانت مريم تحت الشجرة امامه تتشنج وتصيح كمثال لآلام الهيئة الاجتماعية وشقائها واضطراباتها

الفصل الثاني عشر

❁ يوسف ومريم ❁

في مساء ذلك اليوم كان الفرسان الرومان الثلاثة منحدرين على جيادهم من البيت الاحمر الى مجدل وهم يتضاحكون ويتطايبون · فقال مقدمهم

ـــ حقاً ان هؤلاء اليهود غريبو الاخلاق أرأيتم كيف ان تلك اليهودية فضلت علينا ذلك الاحدب الروماني ورفيقه الفتى الحقير· فانها اول ما ابصرتهما تركتني بينما كنتُ اتنزه معها بين الاكام بجانب منزلها ولحقت بهما ·ثم عادت معهما الى منزلها ضعيفة واهية القوى ولزمت فراشها كأنها حملت أحمال الدنيا كلها على عاتقها

فقال رفيقه : ليس الذنب ذنب هذه اليهودية بل ذنبنا لاننا باليناابها وسألناها الضيافة · وقد أحسنتْ في انها طردتنا الآن من منزلها طرد الكلاب فانها علَّمتنا ان لا نبالي بعد اليوم بنساء اليهود الثقيلات

فقال الثالث · وهل تظنان ان سنيكا وابنه دخلا حقيقةً ذلك البيت أم هي تقول ذلك على سبيل المزاح

فقال الاول لو لم تره لما استطاعت وصفه لنا · ولكن دعاني من هذا واخبراني اين نطلب هذا الرجل فقد مللنا البحث عنه واخشي ان يكون خوف الوالي في اوروشليم قد تحقق وفتك به متحمسو اليهود

فقال الثالث وما غرض الوالي في طلبه بهذا الالحاح

فقال الثاني ان مقدمنا يعلم هذا الغرض لانه يحمل اليه كتاباً من الوالي

فقال المقدَّم أُقسم بجو بيتر انكما ثرثاران فما لنا وللبحث في غرض الوالي· انه عهد الينا ان نطلب الرجل ونحرسه في الطريق وندفع اليه كتابه فماذا يهمنا ما بقي

واستمر الثلاثة في انحدارهما نحو مجدل وهم يتحادثون تخفيفاً لمشقة السفر. فما كادوا يبلغون سفح الأكمة ويدخلون في الجادة المؤدية الى مجدل حتى برز شبح كان متوارياً في بستان قريب فتسلّق الجدار ووثب الى الطريق ثم أخذ يصعد الاكمة متوجهاً وجهة بيت مريم

وكان الظلام قد شرع يرخي سدوله وبانت النجوم الاولى في سماء الشرق الصافية والقمر يسبح بينها كأنه سفينة من فضة اثقلتها حمولة من عنبر كما قال الشاعر العربي . وكانت الجداجد قد شرعت في حفلة غنائها الليلي بين الكروم كاجواق موسيقية متفرقة بينها . وكانَ في الهواء عبيراً لنقائه وجفافه وطيب رائحة الازهار البرية المنتشرة فيه . وكان الشبح يسير بين هذه المناظر الشرقية الجميلة في وسط سكون الهزيع الاول من الليل سكوناً نسبياً لان حركة النهار لم تكن قد همدت بعد هموداً تاماً وهو يسرح نظره في ما حوله كمن يتنزه لا كمن يبحث عن شيء ويتنهد تنهداً متصلاً بين دقيقة واخرى تنهداً كان يجد فيه راحة على ما يظهر . ولما انتهى الى اعلى الاكمة وحاذى البيت وقف دقيقة يتلهى بقطف شيء من الازهار وما كان في الحقيقة يتلهّى وانما كان يحاول تسكين روعه قبل وصوله الى البيت لان الاضطراب كان بادياً عليه

وكان الشبح يمدّ يده الى جيبه في اثناء الطريق فيخرج اناء صغيراً ويشرب منه ثم يعيده الى جيبه . ولما امسي بجانب البيت افرغ في فيه كل ما كان في الاناء والقاه بعيداً

ثم انه دنا من نافذة البيت دون تلمّس ولا بحث لانه كان يعرف الى أين تؤدي على ما يظهر . وكان في النافذة باقة ازهار جميلة موضوعة في انية ماء فازاحها بيمينه وأطلّ من النافذة

وكانت مريم في ذلك الحين مستلقاة في سريرها تتناوم . فلما احست بحركة اناء الزهر

التفتت نحو النافذة فوقع بصرها على بصر الواقف وراءها فجلست في سريرها وقد بغتت وظهر الاستياء في وجهها . الا انها أظهرت الرضى والبشاشة فابتسمت وقالت عم مساء . هذا انت يا ربي يوسف (١) تفضل وادخل اذا شئت

فاصطكت ركبتا يوسف تحته الا انه تجلد وقال عمي مساء ايتها السيدة مريم . كيف حالك الآن . عسي ان يكون قد فارقك اعتلالك

فضحكت مريم وقالت ادخل لاقص عليك قصتي

فترك يوسف النافذة وسار يقصد الباب . فلما دخل استقبلته مريم ضاحكة وقالت . حقاً ان قصتنا لليوم قصة تستحق التدوين . فقد كنا جميعاً فلاسفة وحكماء انت وشيشرون وانا . ولكن هل علمت اينا كان اكثر حكمة واشد تأثيراً ! . قالت ذلك ثم اشارت الى رأسها وقالت : ,, هذا '' او بالحري ما وضعت في هذا . فانني شربت شيئاً من الخمرة لانني احسست بضعف فخانني ضعفي وتملكت الخمرة عناني فانطقتني بما انطقتني . والان يخيل لي انني خارجة من حلم رأيته في عالم آخر غير هذا العالم . تفضل واجلس يا ربي يوسف . ما لي اراك كئيباً ولم تكن كذلك حين فارقتني

وكان يوسف كئيباً في الحقيقة في تلك الساعة . فانه توقع بعد ما جرى ان يرى مريم رزينة هادئة نادمة فوجدها كالعصفور خفةً ونشاطاً ورأى لسانها امضى تهكماً وعينيها اسطع برقاً وفاها الذي كان له في الوادي منظر الغضب والوجولية تحيط به الآن شفتان رقيقتان اذا ضمتا اشبهتا وردة نيسان ولهما لغة تعرفها العينان فيدخل معناها الى القلب دون استئذان

رأى يوسف مريم في هذه الحالة وكل قلب غير قلبه يراها فيها يطير لبه

---

(١) ربي معناها في العبرانية (معلم)

اليها وتنبعث في نفسه خفة الطرب والغزل تحركها اوتار الجمال والدلال ٠ ولكن يوسف اكتأب لدى هذا المنظر ولم يستخفه الطرب ٠ وكان ينظر في عينيها شاخصاً كأنه يطلب النفوذ الى اعمق اعماق نفسها ليلمس بنفسه نفس تلك المرأة فكأنّ مظاهر جمالها الخارجي لديه غير موجودة فما كان له عين لها ولا لفتة نحوها ٠ وكانت نظرات يوسف الغريبَة وشخوصه السوداوي المضحك مما يزيد في خفة نفس مريم وطربها فكانت مريم تزداد ضحكاً وهرجاً فيزداد هو ارتباكاً واكتئاباً الى ان تغلّب على نفسه فقال

— انك تعتذرين ايتها السيدة عن جدك اليوم تحت الرمانة بهزلك الآن ٠ ولكني اقول بكل صراحة انني افضل جدك ذاك على هزلك هذا

فقهقهت مريم وقالت — انت اول رجل قال لي هذا القول

فعبس يوسف وقال — ذلك لانني اول رجل مخلص لك يقول لك الحقيقة

فرفعت مريم رأسها بكبرياء كانت تزينه ابتسامة في شفتيها كمن يريد ان يقول قولاً بين الهزل والجد بعد هزل محض وقالت

— الحقيقة ؟ ؟ ولكن ألستَ على مذهب صاحبك الروماني شيشرون الجميل ٠٠٠ أما سمعت من فيه قوله عن (حقيقته)

فاطرق يوسف يفكر وهو في حيرة من امره ٠ فقد وجد في سؤال مريم هذا سبيلاً للدخول الى ما كان يريد الدخول معها فيه وبسط كل ما في نفسه ولكنه كان متردداً ٠ وكان يمرّ يده على جبينه من حين الى حين ويمسح عنه العرق ويضغط بكفه على رأسه لتسكين ثورته المزدوجة ثورة الخمر وثورة قلق الحب ٠ ذلك لان يوسف كان قد شرب كل الخمر الذي كان في حق في جيبه قبل بلوغه المنزل كما رأى القارئ تشجيعاً لنفسه ٠ وكأنه اشتدّ عليه حينئذ تأثير ما شرب فجلس بغتة على مقعد في الغرفة دون ان يُدعى الى الجلوس وصاح متأففاً ٠

ـــ اف ما أضيق عقول البشر

فدهشت مريم لهذه الحركة الفجائية التي تحركها يوسف فالتفتت نحوه وقالت وفي كل كلمة من كلامها سهم

ـــ ما لك يا ربي يوسف هل تشكو ألماً او انزعاجاً

وكان حينئذ بخار الخمر يضغط على دماغ يوسف ضغطاً شديداً فلم يبق في طوقه الصبر لدى تهكم مريم وفتور كلامها فاكبّ على المقعد يستر وجهه بيديه · فدنت منه مريم مستغربة ومدت يدها فقبضت على يده وازاحتها عن وجهه ·

وكان يوسف يُسرُّ البكاء وهو يستر وجهه · فلما مسّت يد مريم يده وشعر ببشرتها الناعمة الباردة اقشعرّ بدنه واستخرط في البكاء بصوت رفيع · واذ أزاحت مريم يده عن وجهه ورأت دموعه وسمعت زفيره دُهشت وجلدت في مكانها لا تعلم ماذا تفعل · ثم غلبتها عواطفها فجلست بجانبه وأمرّت كفها على وجهه تمسح دمعه في أثناء زفيره وهي تقول له

ـــ علامَ البكاء يا يوسف · علامَ البكاء

ولو أُعطي يوسف حينئذ ملك سليمان لما كان الملك لديه بالذ من مرور كف مريم على خده وندائها اياه „ يا يوسف" دون لقب ولا وصف · فقد رأى في اشارتها هذه وندائها هذا اول صوت إخلاص خرج له من قلبها

ولكن لذته هذه نبّهته الى نفسه واعادت اليه كبرياءه فمسح بكمه عينيه كلمح البصر واستوى جالساً دون ان يجترئ نظره على الوقوع على نظر مريم · فكأنه هو المرأة وهي الرجل

فكررت مريم عليه سؤالها ـــ علامَ البكاء يا ربي يوسف

فشعر يوسف هنا بوخز (كلمة ربي) فاستجمع قواه وتغلّب على نفسه وقال

ـــ انني ابكي ايتها السيدة لذكرى امي فانها تسمى باسمك

فابتسمت مريم وقد عادت اليها خفتها وقالت : وهل هذا أمر يوجب بكاك؟
فعيل صبر يوسف لهذا السؤال فاجاب لعلَّ ما كان في راسي من الشراب فعل فيَّ ما فعل فيك ما كان في رأسك منه كما قلتِ الساعة

فزادت مريم في الابتسام وقالت — وهل هذا أمر يوجب ايضاً ذلك ؟ قل الصحيح يا ربي يوسف

فهنا ضاق يوسف ذرعاً واستشاط غضباً وانتصب قائماً وقال :—

— انك تريدين ان تتلذذي بمرأى عذابي . ويسرّك ان تسمعي اعترافي من فمي . فاسمعي اذاً . أتريدين ان اقول لك انني احبك وانني بكيت من اجلك ؟ لا بأس فانني اقول لك ذلك اذا كان يحلولكِ . واقول ايضاً اكثر منه . أقول انني لم أنم منذ ليلتين ولم أتناول من الطعام الا ما يسدّ الرمق . ذلك لانني منذ عرفتك طارت اليك نفسي . هل انتِ راضية الآن عن اعترافي . ثم اسمعي شيئاً آخر . ان مجرّد ذكر اسمكِ يجري دموعي . فان امي تُدعى مريم ويهولني ان اسماً كاسمها يقيم في منزل كهذا المنزل .. انني ليخيل لي حين اسمعه ان كل حرف من حروفه الجميلة يصيح ويستغيث ويطلب الفرار من هذا الجوّ الموبوء . وما دموعي الا جواب صياحه واستغاثته ... أعلمتِ سبب دموعي ؟ ثم انكِ ايتها المرأة جزءٌ من الانثوية التي هي شطر من الجنس البشري . ولدى كلٍّ منا جزءٌ من هذا الشطر اي امهات واخوات وبنات . فانا ابكي لاهانة الانثوية الشريفة فيكِ اذ في اهانتها اهانة لجميع الجنس الذي ننتسب اليه وخرجنا منه وهو لدينا أكرم جنس

ألستِ ترين في كل هذا ايتها المرأة الجميلة سبباً وعذراً لجريان دموع رجل؟ لايّ شيء اذاً نبكي في هذه الحياة؟ ولماذا خلق الله لنا الدموع !

فتنهدت مريم تنهداً طويلاً ورفعت عينيها الى سقف الغرفة كانها تطلب

السماء وتستجير بها · فادرك يوسف معنى تنهدها وحركتها فقال — اذا كان كلامي قد اضجرك الى هذا الحد فاللوم عليك . فانك سألتني ما سبب دموعي فبسطته لك

فبهتت مريم ولزمت الصمت والسكون ولكن باطنها كان مضطرباً · وبعد حين التفتت الى يوسف وقالت

— أتريد ان ابسط لك رأيي ايضاً ايها الشاب يوسف · حقاً انك ورفيقك قد ازعجتماني بوعظكما ونصائحكما ومثلكما معي كمثل رجلين شاهدا غريقاً في النهر فاخذا يلومانه على وقوعه في الماء ويونبانه لغرقه بدلاً من ان يلقيا بنفسيهما في النهر لانقاذه اولاً ثم يلومانه · انت ترى يا صاحب انني اخاطبك الآن بجد وقد تركت الخفة والمزح جانباً فأخبرني لماذا جئت الى هنا ؟ وعلى اي شيء تعتمد في انقاذي واخراجي من هذا البيت الموبوء كما تقول ؟ أكل ما لديك نصح ووعظ وإرشاد يا صاحب ؟ هذه كلها كلام في كلام لا يرد مقدوراً ولا يدفع امراً عسيراً · انظر اليّ ايها الشاب · هل تريد اخراجي من هذا البيت حقيقة ؟ هل تريد من كل قلبك ان تنتزع الماسة نفسها من المزبلة ! تكلم ما لك لا تجيب ؟

فدهش يوسف من ان مريم اخذت تتكلم هذا الكلام بلا تحفظ ولا حذر وأجاب — نعم أريد ذلك حقيقة من كل قلبي

فقالت مريم — اذاً مدّ يدك وضعها في يدي هذه واتخذني زوجة لك فتريحني وتنقذني بالفعل لا بالكلام

فرفع يوسف رأسه لدى هذه الضربة التي وجهتها مريم اليه واحتار في الجواب · فاتمت مريم حديثها فقالت — هذه هي الطريقة الوحيدة لانقاذي على ما تحب وتشتهي كما تقول · فاذا كنت تقدم عليها فهاك يدي ممدودة فمدّ يدك

وضعها فيها · انك ترى انني لست بطماعة ولا اشترط عليك شرطاً غير شرط الزوجة على زوجها واشترط انت عليّ ما شئت · ما لك لا تجيب · تكلم

وكان يوسف يتوقع ان يسمع من مريم كل شيء الا هذا الكلام ولذلك بقي في حيرته في الجواب · وقد استجمع قواه كلها للبحث عن جواب على قدر السؤال فلم يجد غير قوله بتردد

— هذا شيء آخر ··· ايتها السيدة مريم ··· وهو خارج ··· عن موضوعنا ··· ومع ذلك ··· فانني لا اقدر عليه

فضحكت مريم وصاحت — كلا ليس هو بخارج عن موضوعنا · لانه كل موضوعنا · اتخذني زوجة لك اذا كان يهمك انقاذي الى هذا الحد وحينئذ ترى من هي مريم · تقول انك لا تقدر على ذلك وقد ابقيت عبارتك مبهمة فانا افسرها لك لادلك على جنونك انت وصاحبك · لعلك تعني بقولك (لا تقدر) انك عاجز عن حمل امرأة على عاتقك اي اعالتها فانا اطمئن بالك واسكّن بلبالك بقولي انني لا اكون عبئاً ثقيلاً عليك بل مساعداً ونصيراً لك · فانني اعمل في اي شيء شئت لاكسب رزقي وانت تتخذ لك عملاً ونعيش من كسبنا · ولكن ليس هذا ما عنيته بقولك (لا تقدر) وانما عنيت بانه لا يمكنك ان تتخذ زوجة لك امرأة مثلي ··· لانكم ايها الرجال تتهمونني بكل تهمة بسبب معيشتي منفردة وحدي · فاذاً ماذا تريد ايها الشاب النبيه النزيه الذي يحب الخير لي ويرغب في انقاذي ···· ولماذا تزعجني انت وصاحبك بوعظكما البارد

فاطرق يوسف يفكر ولكنه اهتمّ لكلام مريم اهتماماً شديداً وقد اثر فيه اقتراحها ولكنه لم يعلم هل هي اقترحت هذا الاقتراح واخلصت النية فيه ام اقترحته لتعجيزه والخلاص من وعظه · غير ان هذه الفكرة لم تستوقفه وقتاً طويلاً فقال

— لم اعنِ ما ظننتِ ايتها السيدة مريم · فان لي اعذاراً لا تعرفينها

فابتسمت مريم ابتسامة غريبة وقالت — اذاً ارجو منك انت وصاحبك ان تريحاني بعد الان من مواعظكما وتتركاني وشأني · فاذا شئت زيارتي فلك ذلك في اي ساعة شئت من ساعات الليل والنهار فنتحادث في كل شيء غير هذا الشيء ونُسر ونشرب ونطرب · اما انقاذي من الجو الموبوء وتخليص الحمامة من انياب الافاعي وغير ذلك من الاقوال المضحكة التي تقولها لي انت وصاحبك فلا ريب عندي في انكما تعدلان عنها بعد الآن لانني اقترحت ذلك عليك ورددت اقتراحي

وكان يوسف يسمع كلام مريم وكأنه لا يسمعه لانه كان يفكر في أمر آخر · الا انه ورد في كلامها عبارة هي جزء مما كان يجول في نفسه فقال بجدة وقوة

— اما هذا فلا

فدهشت مريم وصاحت بغضب — كيف تقول لا · وباي حق تُصرّ على مداخلتك في شؤوني الخصوصية

فقال يوسف — لا تغضبي ايتها السيدة مريم فقد أسأتِ ايضاً في فهم كلامي ولعل ذلك لانني كنت مشتت الفكر فلم انتبه الى كلامك الاخير · ومعنى قولي (لا) انني لا استطيع زيارتك (لنُسر ونشرب ونطرب) كما قلتِ لان الذي يمنعني من (وضع يدي في يدك) كما اقترحتِ يمنعني من زيارتك للشرب والطرب والسرور · ولا تسأليني ما هو · فان هذا أمر بيني وبين وجداني

فهنا لم تتمالك مريم من الغضب الشديد فاطلقت لنفسها العنان وصاحت — ماذا تريد اذاً ايها الرجل · ولماذا تتبعني وتقتفي اثري · وما الذي جاء بك الى هنا · حقاً انه يظهر ان الله يريد زيادة شقائي

فرفع يوسف رأسه ونظر في عينيها دون ان يهوله غضبها وصياحها وقال

— ان كلمة (الله) في فمك يا مريم اجمل منها في كل فم غيره

فقالت مريم بسكينة وغضب ولماذا

فقال يوسف لا أعلم لماذا

فقالت مريم لعلك تظن انك اقرب مني الى الله . قه قه قه . وضحكت ضحكة التهكم ثم قالت بجد ورزانة . انني قد استوفيت عذابي في هذه الدنيا ايها الرجل والله يعلم ذلك . فكن مطمئناً . انني اقرب اليه منك ومن اي انسان . واذا كان في الآخرة مكان يستريح فيه فريق من البشر ويُعذَّب فريق فربما كنت انت مع الاخرين وكنتُ انا مع الاولين . اذ اي عذاب أشد مما الاقي في هذه الدنيا بين هؤلاء البشر الخنازير . أما آن ان تطهرني عذاباتي . انك تراني اضحك وامزح فتظنني مسرورة راضية . فاعلم الان للمرة الاخيرة ولا تزعجني بعدها بملاحظاتك الباردة . اعلم انني كالعصفور الذي يُذبح فهو يرقص من الألم لا من الطرب . ولو صوّر ظاهري وباطني حين اضع في شفتيّ ابتسامة الربيع وفي عينيّ برق الخريف وفي حركاتي خفة العصافير وفي نفسي عدم مبالاة الصبيان لجاء ظاهري عرساً ربيعياً دائماً وباطني مأتماً ابدياً قاتماً . فكيف تستحل ايها الرجل ان تزيد بملاحظاتك وملاحقاتك عذاب كائن مثلك هذه حاله . انت تلهو لهواً بشؤوني انت وصاحبك ولهوكما هذا انما هو لعب وترويح للنفس بينما نفسي تمزّق تمزيقاً بهذا اللعب . فاتركاني وشأني من أجل الله لا من اجلي . أسمعت ايها الشاب ؟ من أجل الله اتركاني وشأني . انك قلتَ انك شربت شراباً لتتشجع على دخول هذا البيت اما انا فلا أشرب شراباً واُقيم فيه ... فيكفي ما تسمع ايها الشاب . اذهب والعب في غير هذا المكان اذا كنت لا تريد الدخول اليه كما يدخله غيرك

قالت مريم هذا الكلام بلهجة لم تبقِ مجالاً لخطاب ولا جواب فولّى يوسف وجهه شطر الباب وخرج دون ان ينبس ببنت شفة